الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية — كلية أصـــــول الديـــــن

قسنطينة — قسم العقيدة ومقارنة الأديـــان

- الرقم الترتيبي :..... — تخصص التصـــوف الإسلامـــي
- رقم تسجيل الطالب :.....

الجانب الروحي عند محمد سعيد رمضان البوطي

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجســـتير في العقيدة الإسلامية

إعداد الطالب:

أحمد جاب الخيـــر

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد الوهاب فرحات .

أعضاء لجنة المناقشة :

الاسم واللقب	الرتبة العلمية	الجامعة الأصلية	الصفة
أ.د/صالح نعمان	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	رئيسا
أ.د/عبد الوهاب فرحات	أستاذ التعليم العالي	جامعة الأمير عبد القادر	مشرفا ومقررا
د/لحلح الزهرة	أستاذ محاضر – أ –	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا
د/احسن برامة	أستاذ محاضر – أ –	جامعة الأمير عبد القادر	عضوا

السنة الدراسية: 2013 م/2014 م

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

شكر وتقدير

أولا أحمد الله تعالى وأشكره على أن وفقني لانجاز هذا العمل ، وأسأله تعالى أن يجعله خالصا لوجهه .

وأتقدم بجزيل الشكر للأستاذ المشرف الدكتور عبد الوهاب فرحات ، الذي أشرف على هذا العمل ، وصوب أخطاءه ، ووجه سيره بملاحظاته القيمة والسديدة .

كما لا أنسى كل من ساعدني من قريب أو بعيد على انجاز هذا البحث وفي مقدمتهم أساتذتي الكرام بجامعة الأمير عبد القادر بقسنطينة .

الطالب الباحث

أحمد جاب الخير

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الإهـــــداء

أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع إلى روح العلامة محمد سعيد رمضان البوطي وأسأل الله تعالى أن يرحمه وأن يسكنه الفردوس الأعلى ، و إلى أمي وأبي وأسأله تعالى أن يحفظهما كما ربياني صغيرا.

آميـــــن.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مـــقـــدمة

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الحمد لله أحمده تعالى حمد العارفين به ، السائرين إليه ، الذاكرين له والشاكرين ، وأصلي وأسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد : فإنه لا يخفى على أي باحث مسلم أن يدرك الحالة المأساوية المتقهقرة التي آلت إليها أمتنا الإسلامية اليوم على كافة الأصعدة ، ولا سيما ما يتعلق من ذلك بجانب التربية والأخلاق ، هذا الجانب الذي يعد في كل أمة الروح التي تبعث فيها الحياة ، وتهيأ لها البقاء بين الأمم ، على نحو ما قال الشاعر :

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

فلا يقف الباحث اليوم على غير انسياق أعمى في تيار الشهوانية العارمة ، وتكالب فاحش على زخرف الدنيا وزينتها الفانية ، وانقياد تام لسلطان المادية الطاغية ، هذه الأخيرة التي أضحت معيارا للتفاضل بين الناس ، بل والنقطة المحورية التي عليها مدار الوجود الإنساني بأسره ، حتى إنه يمكن القول إن هذا العصر هو عصر سيادة المادية لا غير ، والتي زحفت على الدين فما أبقت منه غير إسمه ، وعلى الوحي فلم تذر منه أزيد من رسمه ، واغتالت القلب الإنساني المتطلع إلى سمو الكمالات ، فأحالته إلى حيوان رابض تحركه نزعات القسوة و الأثرة.

ولعل ما يبعث على الحيرة ويستدعي الوجل ، أنك تنظر ذات اليمين وذات الشمال فترى أن شعائر الدين وما علم منه بالضرورة ، يقبل الناس عليه اليوم كما كانو يقبلون عليه بالأمس ، ولكنه اليوم لم يغير من واقعهم قيد أنملة ، و لم يحرك فيهم ساكنا .

ولذلك كانت هذه المسألة تحديدا هي أم المسائل التي شكلت محل اهتمام العلماء الربانيين ، خلفا بعد سلف ، فعملوا جاهدين عن البحث عن موضع الداء ومكمن الخلل ، وعن ذلك السر الخفي الذي غاب أو غيب من دنيا الناس ، وحلت محله رسوما وأشباحا مفرغة المحتوى ، مسلوبة الحكم والمقاصد .

وإن اهتمام علمائنا الأجلاء بهذا العنصر المفقود ، لم يكن لشيء إلا لـيقين منهم أن ذلك إنماهو السلاح الأول في حياة المسلم ، والباعث على السلوك السوي والخلق الفاضل ، والذي به ترتسم صورة الإنسان الكامل في واقع الحياة ، وعليه ينبني صرح الفضيلة كما شيده أسلافنا .

وإن اهتمام علمائنا الأجلاء بهذا العنصر المفقود ، لم يكن لشيء إلا يقينا منهم أن ذلك إنما هو السلاح الأول في حياة المسلم ، والباعث على السلوك السوي والخلق الفاضل ، والذي به ترتسم صورة الإنسان الكامل في واقع الحياة ، وعليه ينبني صرح الفضيلة كما شيده أسلافنا. ومن الإسهامات التي قدمها العلماء في هذا العصر ، والتي تستحق الدراسة والإثراء بجد ، جهود الشيخ محمد سعيد رمضان البوطي ـــ رحمة الله عليه ـــ والتي فاضت بها مؤلفاته ومحاضراته ودروسه ، والتي ارتأينا أن تكون موضوع بحثنا هذا – الجانب الروحي عند البوطي –.

1- أهمية الموضوع :

لهذا الموضوع أهمية بالغة بين الأبحاث المعاصرة ، تكمن فيما يلي :

- لا يختلف إثنان في أن تزكية النفس وتنقية القلب هما أساس استقامة الظاهر ، وأن التلبس بأي من أحكام الظاهر يغدو قشورا لا وزن لها ، ما لم ينبن على سلامة الباطن وتخليته من الأوضار التي تعلق به ، ثم تحليته بأرفع الأخلاق والفضائل .

- إفتقار المسلمين اليوم إلى تلك القوة الروحية التي تدفعهم إلى التنفيذ ، وهي بلا ريب مطلب يربو على حاجتهم إلى صياغة النظريات والأبحاث الفكرية ، والتي طالما امتلكوا منها قناطير مقنطرة ، ولكن لم تغن عنهم شيئا و لم تجلب لهم نفعا لا في تغير

أحوالهم ، ولا في تزكية نفوسهم واستقامة حياتهم ، بل كثيرا ما اصطدمت مدلولاتها بالواقع والوقائع ، فأفرزت جدليات عقيمة وصراعات مريرة ، كثيرا ما كانت وخيمة العواقب .

– المساهمة المتواضعة في إزالة اللبس و الغموض الذي يحف هذا اللون من الدراسات، وذلك بالشرح والتبسيط ، والتقريب من الفهوم ، ومحاولة النزول به إلى واقع الناس ، إنطلاقا من كتابات البوطي وجهوده في هذا المجال .

– المساهمة المتواضعة في صياغة شخصية سوية متوازنة ، واعية بكيانها الروحي ، لا تعبث بها رياح الأهواء ، ولا تذيبها المغريات الراكدة ولا الوافدة .

2– إشكالية البحث :

إن موضوع الجانب الروحي قد أخذ حيزا واسعا من إهتمامات العلماء ، وذلك إدراكا منهم بأهميته ، وخطورة الزهد فيه ، ويعد البوطي – رحمه الله – أحد الأعلام البارزين في هذا العصر ، الذين أجادوا وأفادوا في هذا المجال ، بل إنه يمكن القول إن مدار كتاباته كان على ذلك السر الخفي الكامن وراء تفرق المسلمين ، وتشتت صفوفهم ، واختلاف كلمتهم ، وهو ما يجعلنا نطرح الإشكال الآتي :

ما هو أثر الجانب الروحي في تفعيل واقع المسلمين ، و لم شملهم ، وإستعادة نهضتهم المفقودة ، من خلال رؤية البوطي وفهمه وتحليله ؟

ويمكن أن تتفرع عن هذه الإشكالية جملة من التساؤلات هي :

– ما هي أهمية الجانب الوجداني في حياة المسلم ؟ وما هي مكانته بين الجوانب الأخرى من عقل وحس ونحو ذلك ؟

– ما هو السبيل الأمثل نحو تزكية الوجدان وتطهير الباطن وتحليته بالممارسة التخليقية؟

– ما هي حقيقة العبودية لله تعالى ؟ وما هو أثرها في الممارسة التحقيقية ؟

وهذه التساؤلات هي ما سنحاول الإجابة عنها في هذا البحث المتواضع – إن شاء الله –.

3– أسباب اختيار الموضوع :

الأسباب الموضوعية:

– إن هذا الموضوع يكتسي أهمية لا تخفى على باحث ، وفي عصر كالذي نحياه أكثر من أي وقت خلا ، إذ إن من المعلوم من الدين بالضرورة أنه لا يستقيم لفرد ولا لأمة حال ، ما لم تدرك حجم ذاك الداء العضال والعدو الغاشم الذي يمزق الباطن ويمحق الظاهر ، ألا وهو نفسها التي بين جنبيها ، فتسارع إلى الوقوف على موطن الداء ، وتحديد مركز العدوان ،ولا تتأخر برهة عن الإستئصال والعلاج .

– لما لشخصية البوطي من أهمية ومكانة علمية ، ولما له من أثر وتأثير في نفوس الجماهير، وحضور متميز في العديد من ضروب ومجالات المعرفة الإنسانية ، دراسة وإثراء وإبداعا وتصويبا .

– رفع الستار عن أحد أعلام العصر الذين تلقتهم الأمة بالقبول ، وذلك بما تحمله كتاباته من إشراقات روحية متعالية ، ذات أثر بالغ في قلب ونفس القارئ ، لا سيما وأنها جاءت بعيدة كل البعد عن الشطحات الصوفية ، وبأسلوب أقرب ما يكون إلى أذواق وفهوم أولئك الباحثين عن الحقيقة ، في ظلمة تشعب السبل ، وازدحام الدعاوى ،وتصارع الآراء والأهواء كما أن كتاباته ودروسه جاءت حلقة وصل

بين الماضي والحاضر ، فبددت تعقيدات الماضي وذللت صعابه ، وصوبت أغلاط الحاضر وانحرافاته ، ومن هذا وذاك شكلت وحدة معرفية ميسورة مستساغة فهما وذوقا .

– أن يكون هذا الجهد المتواضع ــ إن شاء الله ــ مساهمة في تصحيح تصورات الناس حول هذا اللون من المعرفة الإسلامية ، يدرء عنها ما شابها ويشوبها مما ألصق بها فكدر صفوها وجعلها مبعث نفور وجدل وتسفيه ، وبالمقابل يزف صورة التصوف ناصعة تسر الناظرين ، وترغب النافرين ، وتهدِأ من نفوس الثائرين .

الأسباب الذاتية :

لقد حملني على الكتابة في هذا الموضوع تحديدا ودون سواه من المواضيع المتعلقة بمحاور التصوف الإسلامي ما يلي :

–الرغبة المتدفقة بين جوانحي في الكتابة عن العلامة البوطي تحديدا ،وهي رغبة ناجمة عن شدة التأثر بكتاباته ودروسه المتميزة ، التي تكتسي حلة جمالية قلّ ما تجود بها أقلام العصر ، وليست هذه الرغبة جنينا حديث الولادة ، بل مرد ذلك إلى سنوات خلت ، كنت يومها تلميذا في طور الثانوي ، ساقت إلي الأقدار كتابا تحت عنوان " فقه السيرة " , لمؤلفه البوطي ، فكان ذلك الكتاب النواة الأولى التي فجرت فيما بعد ذلك التأثر العارم ، وكانت الشرارة التي تسببت في ذلك قبس من كتابه " من الفكر والقلب " ، ولما فتح الله علي بدخول جامعة الأمير عبد القادر ، تيسر لي الإطلاع على كثير من كتبه ، والتي كلما اطلعت منها على كتاب إلا وأجد أثره يمتد في وجداني ، وينفث في روعي رغبة البحث والإطلاع .

–إيماني العميق أن الشيخ البوطي مدرسة قائمة بذاتها ، تركت بصماتها في تربة العلم والبحث ، وذلك بما تحمله من آراء وتصورات ، مبناها الوسطية ، وقِوامها

الإعتدال، ومنهجها البحث عن الحق ، وغايتها مرضاة الله ، فجاءت ثمرتها حلوة المذاق وإن حاولت الجائحة أن تنال منها قبل ان تزهو ، وكل ما في هذه المدرسة من تنوع وثراء سيق إلى الناس خطابا يقرع العقول ولا يستأذن عند ولوج القلوب وهذا ـــ في نظري ـــ ما يجعل منه شخصية تستحق الدراسة والإهتمام .

وهذه الأسباب في جملتها دفعتنا إلى أن نجعل الشيخ الدكتور البوطي موضوعا لبحثنا.

4- أهداف الدراسة :

تهدف هذه الدراسة المتواضعة إلى :

- إزالة النظرة العدائية التي يصوبها جم من الناس نحو هذا الجانب من المعرفة ، هذه النظرة التي مبناها ـــ في نظري ـــ روح التعصب أحيانا ، وروح الجهالة والسطحية أحيانا أخرى ، ومنذ القديم عرف الناس أن الإنسان عدو لما يجهله ، كما عرفوا أيضا أن الأهواء الغالبة لا تجدي معها معرفة ، ومن ثمة فإن من الأمانة أن يساهم كل على قدر استطاعته في تصويب الفهوم .

- إثراء المكتبة الإسلامية بهذا الضرب من الدراسات ، والتي تبرز جهود وإسهامات علماء هذا العصر ، في تبسيط قضايا التصوف ، خاصة إذا علمنا أن التصوف هو من العلوم التي اتسمت باللبس والغموض في تراث المتقدمين ، فكانت في رؤى الناظرين إليها من خارج التخصص أشبه ما تكون بالألغاز ، ولا نرى مبالغة في وصفها بالطلاسم المغلقة ، وجهود الشيخ البوطي تهدف ـــ في هذا المجال ـــ إلى تذليلها وفك مغاليقها وإنزالها إلى واقع الناس .

5 – الدراسات السابقة :

يعد هذا الموضوع المتعلق بجهود الشيخ البوطي موضوعا بكرا ، لم يتناوله الباحثون بالدراسة ، وكما هو معلوم أن الشيخ البوطي من علماء هذا القرن ، لم تتوقف جهوده وإسهاماته إلى غاية اللحظة التي لقي فيها ربه ـــ رحمة الله عليه ـــ .

6- الصعوبات المعترضة للبحث :

لا نشك في أنه ما من جهد علمي يبذله صاحبه إلا ويعترضه ما يقلل من قيمته وشأنه ، وينزل به دون المراد ، ولكن صوت الإيمان لا يكف عن تذكيرنا بأن لا وجود للكمال في دنيا الناس ، وبذلك فإن جملة الصعوبات التي واجهت هذا البحث يمكن عدها في :

- إن قضايا التصوف في كتابات البوطي لم ينفرد بها كتاب دون آخر ، وإنما جاءت منجمة في أغلب مؤلفاته ، مما يجعل الإلمام بها جهدا غير يسير .

- إن موضوع الجانب الروحي عند العلامة البوطي ذوقا وفهما لا يزال - في حدود علمنا - موضوعا بكرا ، لم تلمسه يد باحث ولا دارس ، على نحو مستوف للشرائط الجامعية ، مما يجعل من هذا العمل المتواضع جهدا شخصيا يتكئ على الجمع والتحليل والإستنتاج بالدرجة الأولى .

- صعوبة متعلقة بطبيعة الموضوع تحديدا ،فشتان بين واصف للتجربة الروحية وبين من يعايش تلك التجربة ، ونحن لا نزعم أننا عانينا تلك التجربة ولكن حسبنا الحديث عنها .

- ندرة المراجع التي تناولت حياة البوطي بشكل يفي بالغرض ، مما يجعلنا نجتهد في أن نستلّ ذلك من مؤلفاته ، وما أومأ إليه من إشارات متعلقة بالحديث عن نفسه ، كما

هو الحال بالنسبة لما ورد في كتابه "هذا والدي " ، وكتابه " من الفكر والقلب " ونحو ذلك .

7- المنهج المتبع :

نظرا لما تقتضيه طبيعة هذه الدراسة ، فقد اعتمدت **المنهج التحليلي** ، وذلك بجمع ما تناثر من أقواله في بطون كتبه ، ثم أجتهدت في فهمها ، وترتيبها والربط بينها حتى تتشكل منها وحدة متكاملة المعنى في النقطة المراد دراستها ، ثم أعمد إلى تحليلها وبيان مغزاها ، ثم أثريها بأقوال الكبار من أهل الشأن .

8- خطة البحث :

لقد جاءت هذه المذكرة مقسمة إلى ثلاثة فصول :

الفصل الأول وجعلته تحت عنوان : سيرة البوطي وآثاره العلمية ، وقسمته إلى ثلاثة مباحث المبحث الأول وتطرقت فيه إلى حياته ، وأسرته وأثرها في نشأته وتعليمه ، ثم مرحلة التحصيل بالأزهر الشريف ، ثم تدريسه بجامعة دمشق ومساجد سوريا ، مشيرا بين ثنايا البحث إلى جهوده الدعوية والتربوية .

وفي المبحث الثاني من هذا الفصل تطرقت إلى أثر جملة من الأعلام الربانيين من مختلف العصور والذين كانت لهم مساهمة بارزة في بزوغ وتكوين نزعته الروحية ، وميولاته الصوفية ، ومن أبرز أولئك الأعلام : الفضيل بن عياض ، وعبد الله بن المبارك ، والغزالي وغيرهم .

أما المبحث الثالث فقد صرفت الحديث فيه إلى مؤلفاته ، وخصائصها ، ومنهجه في البحث والتأليف .

أما الفصل الثاني فقد جعلته تحت عنوان : نظرية المعرفة عند البوطي ، وقسمته كذلك إلى ثلاث مباحث ، الأول للمعرفة الحسية ، طبيعتها ، مجالاتها ، حدودها ، والثاني للمعرفة العقلية ، وكان مدار الحديث فيه على العقل ومكانته ووظيفته ، ثم تنقيته مما يعلق به من الأوهام ونحوها ،والثالث للمعرفة الذوقية ، طبيعتها وضوابطها وخصائصها ،وهذا كله لأجل الوصول إلى تكاملية مصادر المعرفة في الإسلام ،خلافا للمناهج الغربية التي صرمت حبل الوصال بين ضروب المعرفة .

أما الفصل الثالث والأخير ، فقد جعلته تحت عنوان الممارسة الصوفية ، وقسمته هو الآخر إلى مباحث ثلاثة ، الأول وجعلته للممارسة التخليقية ، وعرجت فيه على المقامات والأحوال ، والثاني كان مدار الحديث فيه على مقتضيات هذه الممارسة ، من ذكر وخلوة ونحو ذلك ، وأما الثالث فكان الحديث فيه منصرفا إلى الممارسة التحقيقية ، وعرجت فيه على شرح حقيقة العبودية لله تعالى ،وما ينبغي أن تنبني عليه من إفتقار وإضطرار .

وفي الأخير لا أمتلك إلا أن أتوجه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف على هذا العمل ،الأستاذ الدكتور عبد الوهاب فرحات ، والذي أفادني كثيرا بتوجيهاته ونصائحه ، وكان لي في ذلك ــ بعد الله ــ خير معين ، بل إن رعايته لهذا البحث بدأت منذ بداية التفكير فيه ، ولذا لا أكون مبالغا إن أعددت شكره ثانية ، كما أشكر كافة أساتذتي الذين لم يبخلو علي يوما بنصائحهم وتوجيهاتهم ، ولا أخفي أنني قبل إستفادتي منهم في مجال العلم والمعرفة ، إستفدت من عظيم أخلاقهم ما لا يمكن تحصيله بدينار ولا درهم ، وهم الأستاذ الدكتور عليوان ، والأستاذ الدكتور نعمان صالح ، والأستاذ الدكتور عبد الحكيم فرحات ، والدكتور العربي بن الشيخ ، والدكتورة لحلح زهرة ، والله من وراء القصد وهو يهدي إلى سواء السبيل .

الفصل الأول :

سيرة البوطي و أثاره العلمية.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : مولد البوطي ونشأته العلمية

1- مولده وأسرته :ولد البوطي سنة ألف وثلاثمائة وسبعة وأربعين هجرية (1374هـ) ، الموافق لسنة ألف وتسعمائة وتسع وعشرين ميلادية (1929م) ، في قرية جيلكا ، وهي قرية من قرى جزيرة بوطان كما تسمى باللغة التركية ، وإسمها باللغة العربية جزيرة إبن عمر ، وتقع داخل تركيا، قريبا من الحدود السورية [1].

عرفت أسرة البوطي بالعلم والتدين ، فقد كان والده الشيخ ملا رمضان زاهدا تقيا ورعا ، وفقيها مشهورا على المذهب الشافعي ، كما عرف بصبره وحلمه وسمو أخلاقه ، وكان من جملة ما ابتلته به المقادير أنه ما من مولود يولد له وزوجه إلا ويتخطفه الموت من بين جنبيهما ، فقد توفي لهما ثلاث بنات على التوالي ، الكبرى منهن لا يزيد عمرها عن السبع سنين [2] ، أما سعيد فقد كان الإبن الوحيد في كنف والديه ، رغب والده في أن يسميه أول الأمر محمد فضيل ، غير أن شيخ القرية أبى إلا أن يسميه محمد سعيد ، وذلك بعد أن باركه ودعا له[3] .

وعندما بلغ سعيد من العمر أربع سنين ، هاجر والده إلى دمشق ، قادته إلى ذلك قلة اليد من جهة ،ومن أخرى مضايقات جنود الأتراك التي كانوا يلحقونها بأهل العلم والصلاح خاصة ، حتى إنهم بلغ بهم الحد ــ أو الإستبداد ــ إلى التعدي على شعائر الدين، وإخلاء المساجد من المصلين ، وتمزيق المصاحف ، وتفرقة الطلاب ، وغيرها من بوائق الأعمال وأشرسها ،وذلك ما كان سببا في أن يترك الديار [4] ، وينقل لنا البوطي على لسان

---

[1]- محمد سعيد رمضان البوطي ، هذا والدي ، ط1 ، دمشق : دار الفكر (1985م) ، ص 13.

[2]- المصدر نفسه ، ص 55.

[3]- البوطي ، شخصيات استوقفتني ، ط1 ، دمشق : دار الفكر ، (2001م) ، ص 19.

[4]- البوطي ، هذا والدي ، (مصدر سابق) ، ص 34 و 35 .

والده ملابسات هجرته ، يقول : ((لما فكرت في الهجرة ساورتني في ذلك مخاوف كثيرة فليس سهلا أن يقتلع الإنسان نفسه من وطنه وينهي سائر علاقاته به إلى غير رجعة .))[1] ، غير أن صدق الإيمان وحقيقة التوكل من شأنهما أن يزيلا كل المخاوف ، لا سيما إذا علمنا أن الرجل كان قوي الصلة بالله ، كثير الذكر ، متواصل التلاوة لكتابه ،وكل ذلك يزج المؤمن في شهود الحق ، ويجعله يدرك أنه في إرادة الله ، وهو ما تحقق به الشيخ ملا ، آية من كتاب الله تستوقفه وهو يتلوه ،((**وَمَنْ يُّهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلأَرْضِ مُرَٰغَماً كَثِيراً وَسَعَةً وَمَنْ يَّخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِۦ مُهَاجِراً إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ۝٩٩))[2] ، ولا شك أن هذه الآية علاج لكل مؤمن هجست في نفسه المخاوف ، وألهمته اليقين بوعد الله الذي لا يخلفه ، ولذلك ما لبث والد البوطي طويلا حتى استقر به المقام في أرض دمشق ، ومن عناية الله به أن هداه إلى حرفة يتكسب منها .

كما لا يفوتنا في هذا المقام أن نشير إلى مظهر من مظاهر عناية الله بعبده ، ماثلة في الشيخ ملا ، ألا وهي براعته في الجمع بين الحياة العملية والحياة العلمية ،وقدرته على التنسيق بين وظائف العلم ومهام التكسب ، والتوفيق بين شخصية الفقيه الرباني والتاجر الممتهن[3] .

وما من واقف على هذه الإطلالة الموجزة على حياة الشيخ ملا ، إلا ويدرك أن شخصية إبنه سعيد لم تنبع من فراغ ، وإنما كانت إنعكاسا لشخصية والده ، فقد حفرت في مجرى

---

[1]- المصدر نفسه ، ص 32.

[2]- سورة النساء ، الآية 99.

[3]- البوطي ، المصدر نفسه ، ص 41.

حياته حفرا عميقا ، وغرست في نفسه أسمى المبادئ وأرفع الأخلاق ، وعلت به إلى مقام العارف بالله ، كما سيتضح لاحقا – إن شاء الله – .

2– أثر الأسرة في نشأته وتعليمه :

سبق القول أن أسرة البوطي لم تعرف من نعيم الدنيا وراحتها منذ نشأتها إلا إسمه ، فلقد سرى الإملاق في الأوساط حتى غدا هاجسا لا رد له ، ومن الطبيعي أن الفقر خير وكر يحتضن الجهل ، وفي ظل ظروف كهذه قلما تعثر على صبور لا يطوي لواءه ، وكان والد البوطي ممن لا يعرفون الانحناء ما حيوا ، فقد وفقه الله في صباه إلى دخول المدرسة ،وأن يكون تلميذا عند كبار العلماء [1] ثم يسر الله له حفظ القرآن فحفظه ، كما صب اهتماماته الفقهية على جانب العبادات منها ،ومع ذلك كله كان شغوفا بقراءة كتاب الإحياء للغزالي ، وذلك بعض ما نمى فيه الرغبة في الطاعة ، والإكثار من النوافل ، لاسيما من ذلك قيام الليل .

وفي روعة هذه الأخلاق وجمال هذا التعبد كان كثير الإهتمام بإبنه سعيد ، وتربيته تربية روحية إسلامية رفيعة ، ويمكننا القول إن أول مراحل هذه التربية أنه كان مثالا يحتذى به ، وهو ما يعبر عنه بالتربية بالقدوة ، ثم جاءت المرحلة الثانية من هذه التربية ، وقد كانت توجيها ونصحا وإرشادا .

يذكر البوطي أن مما علمه والده له ورباه عليه ، أن التقوى هي أساس العلم ،ليس أدل على ذلك من قوله تعالى :((**وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهَ**... الآية))[2] ، كما يذكر أن والده – رحمة الله عليه– أراد أن يضع بين يديه كتابا من تأليفه ، يضمنه نصائحا ووصايا يأخذ بها نفسه إذا فتح عينيه على دنياه ، وبدأ يشق رحلته في دروب الحياة ، وبالفعل كان له

[1]- البوطي ، هذا والدي ، (مصدر سابق) ، ص 41.

[2] – سورة البقرة ، الاية 281.

ذلك ، ومما جاء فيه قوله : ((أيها الولد : أوصيك بالتفكر في نفسك بأنك محدث ، خلقت من ماء مهين بواسطة والديك ،كما خلقنا أيضا كذلك وهلم جرا ، إلى أبينا آدم ، وقد خلقه الله عز وجل من تراب ، ... فإذا علمت بأنك محدث علمت حدوث غيرك أيضا من السماوات والأرض وما فيهما ، وحدوث سائر العالم ، عرفت بأن للعالم محدثا خالقا أوجده من العدم ، وهو الله الرازق المحيي المميت الفعال لما يريد ... وحينئذ تعلم أن إلهك هو الله الواحد الأزلي الأبدي الذي ليس له نظير ، ولا أول له ولا آخر ، المنزه عن الكم والكيف وأين ومتى))[1].

وجلي ما يرمي إليه هذا الكلام من دعوة إلى النظر والتأمل في النفس ، والتأمل بصورة عامة وإعمال العقل هو سبيل الوصول إلى الإيمان ، وكثيرا ما نقف عليه في الوحي الكريم، كقوله تعالى: ((**فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧**))[2] .

وفيما يتعلق بغرس العقيدة الصحيحة في النفس ، يبين له أن أول ما يجب عليه العلم به هو معرفة الله الخالق ، ثم معرفة الحكمة من هذا الخلق ، وفي ذلك يقول له : ((فيا أيها الولد : إذا وعيت ما ذكرنا فألق السمع للكلام الآتي وأنت شهيد ، وتأمل فيه حق التأمل أيها السعيد ، واعمل به فإنه هو السبب للحياة الأبدية والأمر السديد ، وهو هذا الذي أقوله لك ، اعلم أن الله خلق الجنة والنار ،وخلق أشياء كثيرة أخرى لا يعلمها أحد غيره من الملائكة والإنس والجن وسائر الحيوانات والجمادات ،ولم يكلف نوعا من هذه الأنواع غير الإنس والجن))[3] ، ويوصيه بالصدق والعلم والإستقامة قائلا:((فإذا أقبلت على الله صدقا ينبغي أولا أن تتعلم العلم ، وإذا أردت أن تتعلم فكن في أيام تعلمك متيقظا زاجرا

---

[1]- البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 184و 185.

[2]- سورة الطارق ، الآيات 5، 6 ، 7.

[3]- المصدر نفسه ، ص 186.

نفسك عن المعاصي))[1] ، وعن تزكية النفس وتحليتها يقول له : ((وزك نفسك من الرذائل والأمراض القلبية ، كالغضب والحقد والحسد والعجب والرياء والفخر والحرص على الدنيا ، لأن من الفروض العينية معرفتها ومعرفة أسبابها وعلاجها))[2].

وهذه الوصايا القيمة مدارها على تخلية الباطن مما يعلق به من الأوضار ،وتحليته بما ينبغي أن يكون عليه من سمو الخلق ، ثم استقامة الظاهر وفق المطلوب في الشريعة ،وذلك هو التصوف الإسلامي السوي ، وهو ما نشأ عليه البوطي ، وانعكس على شخصيته علما وخلقا ،بل إن فقهه للتصوف لا يزيد على هذا ، ولذلك نجده [3]يذهب إلى أن التصوف لا يعدو أن يكون سعيا إلى تزكية النفس من الأوضار العالقة بها ، قصد توجيهها إلى حب الله والرضا عنه ، وحسن التوكل عليه ، ومعلوم أن هذه هي درجة الإحسان ، والتي هي أعلى درجات التوجه إلى الله ، والتعلق الدائم به ،أو ما يعبر عنه بـ ((المراقبة المستمرة لعظمته وجلاله ، والمشاهدة المقيمة لأنواره وأضوائه))[4].

وإضافة إلى ما سبق بيانه ، نجد أن هذا المنهج التربوي الذي سطره الملا رمضان لابنه سعيد وأخذه به ، لا يخلو من رياضات صوفية عظيمة الأثر على المريد ، ومنها الصمت ، وهو ركن من أركان المجاهدة ، به يروض اللسان على ألا ينطق إلا بما كان موافقا لمقتضى الشريعة ، وبه تهذب الطباع وتترقى الأخلاق، يقول:((ثم عليك بالصمت أيها الولد ،سيما عن المحرمات والمكروهات))[5].

---

[1]- البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 187.

[2]- المصدر نفسه ، ص 188.

[3]- البوطي ، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي ، ط1 ، دمشق : دار الفكر (1988م) ص 189.

[4]- أحمد الشرباصي ، يسألونك في الدين والحياة ، دط ، بيروت : دار الجيل ، دت ، ج 01 ، ص 557.

[5]- البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 189.

ثم إنه يشد اهتمامه إلى أمر الصلاة مبينا بعدها الروحي فيقول : ((ثم عليك بإقامة الصلاة بأركانها وشروطها بخشوع وتضرع وحياء من الله ، ثم عليك بالسنن الراتبة فإن من واضب على تركها صار مردود الشهادة ، ثم أوصيك بملازمة الجماعة))[1] .

كذلك مما غرسه فيه حب الله تعالى ، وتعويد لسانه على الذكر ، وتعليمه العزلة ، فمما يذكره البوطي أن والده كان يأخذه معه إلى بناية قديمة مهجورة ، فيجلسه قربه ، ويبدأ الشيخ رحلة الذكر والتأمل وتلاوة القرآن الكريم .

وكان هذا الوالد- رحمه الله- يرى أن المأوى الأنسب الذي ينبغي أن ينشأ فيه الطفل هو المنزل ، وأن الطفل يجب تلقينه لفظ الجلالة عند أول محاولة نطق له ، ثم يجب ـــ بعد ذلك ـــ تلقينه عبارة الشهادة ،وأنه من الضروري تعليمه المبادئ الأولية للعقيدة الإسلامية ، فيدرك أنه ما من بشر إلا وهو عبد مملوك لله تعالى ، ثم بعد ذلك يلقن القرآن الكريم كاملا ، مع خلاصة عن سيرة النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ[2].

وهذه الوصايا على بساطتها ومجانبتها التعقيد ، هي من أنفس الوصايا ، إذ تمثل منهجا تربويا متكامل الجوانب ، نابعا من معين الوحي ، بعيدا عن شطحات الصوفية ، وقد آتت أكلها وأثمرت شخصية شفافة ، وروحانية رفيعة في شخص البوطي، وكان لها امتداد في حياته السلوكية والمعرفية بل إنه يمكن القول إنها قوام حياته الخلقية والعلمية.

---

[1]- البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 190.

[2]- المصدر نفسه ، ص 55و 56.

3- بداية رحلته العلمية والمعرفية :

بدأ الشيخ البوطي رحلته العلمية في كنف أسرته التي ولد فيها ، ذلك أن معلمه الأول هو والده ،إذ هو الذي لقنه أهم مبادئ العقيدة الإسلامية ، وهو الذي علمه موجزا من السيرة النبوية العطرة ،وهو الذي درسه قواعد النحو والصرف ، حتى إنه حفظ ألفية ابن مالك في النحو وهو دون البلوغ [1]

ثم بعد ذلك عهد به والده إلى إمرأة فاضلة كانت تعلم الصبيان القرآن الكريم ، فاهتمت به إلى غاية أن أتم حفظه في مدة لم تتجاوز الستة أشهر ، وهو إنجاز عظيم قذف في قلب والده سرورا وسرورا ، وجعله يكافأ تلك المرأة بأن أعطاها أربع ليرات ذهبية ، وهو مبلغ ذو قيمة حينها ، ثم عهد به ــ بعد ذلك ــ إلى مدرسة ابتدائية أهلية خاصة ، كانت تربطه بمديرها علاقة خاصة ، وهي مدرسة لم تكن تعنى بأزيد من تعليم الدين،وبعض المبادئ الأولية المتعلقة باللغة العربية ،مع نزر يسير من دروس في الرياضيات [2] .

وما يلقن للطلاب في مثل هذه المدارس على بساطته وعلى حداثة سن المتلقين ، إلا أنه كان ذا أثر عظيم على نفوسهم ، فهو أولا يغرس مبادئ الدين وأخلاقه في قلوبهم وعقولهم ،ويمدهم بما يزكي أرواحهم ويبعث فيها حب العلم والتحلي بآدابه ، ولذلك نجد البوطي وإلى آخر عمره لا ينسى هذه الدروس ، ويذكر لنا بعض القصائد التي تلقاها في تلك المرحلة ، ويبدي تأثرا بالغا بها ، ومن ذلك قصيدة تحدثنا عن بعض مظاهر قدرة الله في خلقه ، وفيها خطاب للعقل عسى أن يتدبر ويستفيق ، يقول :

من علم العصفور أن يبني عشا في الشجر.
الله قد علمه ذاك وأعطاه الهدى.

---

[1]- البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 56.

[2]- المصدر نفسه ، ص 56،57.

من علم النحلة أن تمتص أزهار الثمـــر.
الله قد علمها ذاك وأعـــــطاها الهدى.

وكذا قصيدة أخرى تروي قصة ضرير يخاطب أمه ، وهي قصيدة تزف لنا صوت القلب المتألم ، يقول صاحبها :

يا أم ما شكل السماء وما الضياء وما القمر
بجمالها تتحـــــدثون ولا أدري منه الأثـــر
أمشي أخاف التعثـــر وسط الضياء أو السحر
عكازتي هي ناظـــرتي هل في جماد من بصر
يا أم ضميني إلـــيك عسى يزايلني الضجر
يا أم لا تبكي علـــي رعاك من خلق البشر[1].

بعد هذه المرحلة ، مرحلة الصبا ، دخل البـــوطي إلى المعهـــد الشـــرعي الـــذي كـــان يـــديره الشيخ حسن حبنكة الميداني ، و لم يكن هذا المعهد قد اكتسب حينـــها اســـم المعهـــد بعـــد ، إذ هو لا يزيد على أن يكون مسجدا يضم عـــددا قلـــيلا مـــن الطلبـــة ، وهـــم شـــباب تتـــراوح أعمارهم بين العشرين والثلاثين ، انقطعوا عن بيـــوتهم وتفرغـــوا للطلـــب والتحصـــيل ، وكـــان البوطي على صغر سنه واحدا من هؤلاء الطلاب ، تماشيا مع رغبة والـــده الـــذي كـــان يخشـــى أن تنصرف ميولات إبنه إلى الانضمام إلى المدارس الحكومية ، وهو من أشـــد مـــا كـــان يحـــذره الشيخ ملا ويحذّر منه إبنه ، إذ لا رغبة للشـــيخ في التكســـب بـــالعلم أو طلـــب الشـــهادات ، وإنما كان يبتغي بالعلم الطريق إلى الله لا غير ، يقول : ((اعلم يـــا بـــني أنـــني لـــو عرفـــت أن الطريق إلى الله يكمن في كسح القمامة من الطـــرق لجعلـــت منـــك زبـــالا ، ولكـــنني نظـــرت

[1]ـ البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 57.

فوجدت أن الطريق الموصل إلى الله هو العلم به وبدينه ، فمن أجل ذلك قررت أن أسلك بك هذا الطريق))[1].

تلقى البوطي هذه الوصية وقد حفرت عميقا في عقله ، وأخذت بمجامع قلبه ، وأمسى بمقتضاها طالبا من طلاب هذا المعهد ، يتلقى العلم على يد الشيخ حسن حبنكة ، وعلى يد بعض الطلاب الذين سبقوه إلى دخول المعهد ، إضافة إلى ما كان يتلقاه على يدوالده من دروس في النحو والبلاغة ، وبذلك فإن هذه المرحلة تعد بحق المرحلة التأسيسية في حياته العلمية[2] ، والتي انبنت عليها مرحلة التلقي والتحصيل على مستوى أعلى .

4- مرحلة الأزهر الشريف :

تبين مما سلف ذكره أن البوطي هو نتاج والده، فقد كان العين – بعد الله- التي تحرسه وترعاه وتسهر على توجيهه وتربيته في سياق ما يقتضيه هذا الدين الحنيف ،وتبعا لذلك فقد كان والده هذا يكره أن يكون العلم وسيلة للتكسب وطلب الدنيا والجري وراء الألقاب والشهادات ونحو ذلك ، غير أن لطائف الله وحكمته في خلقه هي شيء غير تدبير العقول ، فبعد أن أتم البوطي تحصيله في المعهد السالف ذكره ، وجد نفسه ملزما بتأدية الخدمة العسكرية ، ولا رد لهذا الأمر المحتوم إلا بإتمام الدراسة وعلى مستوى جامعي مقبول ، ولا سبيل إلا بالإلتحاق بكلية الأزهر الشريف بالقاهرة ، إذ لم تكن كلية الشريعة بدمشق قد افتتحت آنذاك ، وليس من اليسير بالنسبة له دخول الأزهر الشريف، كيف ووالده يرفض أن ينزل بالعلم إلى مستوى طلب الشهادات والوظائف ، أضف إلى ذلك ما كان يسمعه عن مصر ، فهي ــ بالنسبة له ــ بلد المغريات وموطن الفساد واللاأخلاق ، غير أنه وكما أسلفنا الذكر ، الترتيب الرباني شيء فوق العقل ، فبعد تفكير الوالد

[1]ـ البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 59.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 62.

واستخارته واستشارته ، تقبل الأمر ، يقول البوطي : ((وجهني الوجهة التي لا بديل عنها ونصحني فأطال النصح ، وعاد فذكرني بأن لا أجعل ذهابي إلى الأزهر سعيا وراء شهادة ، أو رغبة في الحصول على وظيفة ، وجددت أمامه العهد ، وأكدت له سلامة المقصد ، ومضيت فالتحقت في ذلك العام ــ أي سنة 1953م ــ ذاته بكلية الشريعة في جامعة دمشق))[1] .

دخل البوطي جامعة الأزهر وقضى فيها ثلاث سنوات ، وحصل إجازة من الكلية نفسها ، ثم عاد إلى دمشق ، وشارك في مسابقة تدريس التربية الدينية ونال النجاح ، وغدا مدرسا لهذه المادة ، وإنه يعتبر ذلك من أكبر نعم الله عليه ، إذ لم يضيّعه و لم يذره يتكفف الناس أعطوه أو منعوه [2] ، وهذا مصداقا لقوله تعالى :((**وَمَنْ يَّتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَل لَّهٗ مَخْرَجاً ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ** الاية))[3]

وفي السنة نفسها حصل على دبلوم التربية من كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف ، كما أوفد إلى كلية الشريعة ثانية سنة 1965م ، وقدم أطروحة نال بها درجة دكتوراه ، وكانت تحت عنوان : (ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية) ، وبذلك يعد قد أمضى ثلاث عشرة سنة بين الأزهر ودمشق وهو في دور الدراسة والتحصيل[4] .

---

[1]ـ البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 63.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 64.

[3]ـ سورة الطلاق ، الآية 02-03.

[4]ـ البوطي ، من الفكر والقلب ، دط ، عين مليلةــ الجزائر ــ :دار الهدى ، دت ، ص 233.

5- تدريسه في جامعة دمشق :

لم يكن لهذه المرحلة من حياة الشيخ البوطي حظ وافر فيما تيسر لنا الإطلاع عليه ، سواء في مؤلفاته ، أم فيما نشر عنه في الجرائد الوطنية إثر استشهاده ، ولا حتى عبر الانترنت ، وهو ما جعـــلنا مضطرين لتكوين صورة موجزة عن هذه المرحلة .

فبعد تحصيله لشهادة العالمية من الأزهر الشريف ، عين أستاذا معيدا بكلية الشريعة بجامعة دمشق ، وكان ذلك سنة 1960م ، أي قبل تحصيله شهادة الدكتوراه ، أما بعد تحصيل هذه الشهادة من الأزهر فقد رجع إلى دمشق وعين مدرسا بكلية الشريعة ، وفي سنة 1970م تمت ترقيته إلى أستاذ مساعد بالجامعة نفسها ، ليتم ترقيته إلى أستاذ سنة 1975م ، فعميدا للجامعة وذلك سنة1977م وأخيرا تولى منصب رئيسا لقسم العقائد ومقارنة الأديان سنة 2002م.

6- نشاطاته المسجدية ووفاته :

إلى غاية السبعينيات كان نشاط الشيخ البوطي محصـــورا في المجـــال الأكـــاديمي ، أي عـــــلى المستـــوى الجامعي ، وكانت علاقتـــه بالنشـــاطات والـــدروس المســـجدية لا تـــــزيد علـــى درسين في الأسبـــوع ، إذ كان يقدمهما في مسجد السنجقدار ، وبعـــد هـــذه الفتـــرة توســـعت دائرة نشاطاته العلمية ، خارج حدود الجامعة ، حيث كانـــت لـــه دروس متكـــررة في مســـجد تنكز ، وكذا مسجد الإيمان ومسجد والده الشـــيخ مـــلا رمضـــان ، والمســـجد الأمـــوي ، إلى جانب نشاطات علمية أخرى ومشـــاركات في النـــدوات والمـــؤتمرات في مختلـــف دول العـــالم ، العـــربية منها والغربية ، ومن أبرز هذه النشاطات إلقائـــه محاضـــرة في مجلـــس البرلمـــان الأوربي بسترانسبورغ ، ومشاركته في العديد من لقاءات المجمـــع الفقهـــي الإســـلامي ، وكـــذا نشـــاطه كعضو في جمعية نور الإسلام بفرنسا ، كما عمل عضـــوا في المجلـــــس الإستشـــاري الأعلـــى

لمؤسسة طابة بأبي ظبي ، كما تولى إمامة المسجد الأموي بدمشق مع الإشراف على نشاطاته العلمية ، و أسندت إليه كذلك ــ خلال هذه الحقبة ــ رئاسة اتحاد علماء الشام.

وبهذا يتجلى لنا ما كان يقوم به العلامة البوطي من نشاطات علمية ودعوية ، وعلى أصعدة شتى، ومما لا يقبل الخلاف أن العلامة البوطي هو من كبار علماء الدين ، والذين تلقتهم الأمة بالقبول في هذا العصر ، وكان له في كل قلب مسلم وقعه المتميز ، وذلك ــ في تقديري ــ يعود إلى إخلاصه الكبير لخدمة هذا الدين ،وصدق نواياه في خدمة الحقيقة وتبصير الناس بها، وذلك هو السر الذي تشكلت منه كتاباته وخطاباته ، فلا تخرج إلى الناس إلا وهي شراب سائغ مزجت فيه أذواق القلوب وأنوار العقول ، وهو بلا ريب السر الذي أودعه الله قلوب العارفين به.

أما عن مواقفه السياسية – التي طالما جنت عليه – فقد كان ــ رحمة الله عليه ــ ككثير من أهل العلم ينبذ العنف بجميع أشكاله ، ويمج الفتن ، ويأبى التعدي وإن ارتدى زي الدفاع عن الأنفس واسترداد الحقوق ، وبهذا كان لا يرى مانعا من الإحتكاك بالحكام وتوجيه النصح لهم ، وتبصيرهم بمواطن الحق ، وذلك ما شكل علائقه الطيبة مع ولاة أمور بلده بدء من عهد حافظ الأسد ، هذا الأخير الذي كان يستدعيه بين الفينة والأخرى إلى لقاءات شخصية ، تولد عنها استجابة الرئيس إلى طلبه المتمثل في إطلاق صراح عدد كبير من المساجين ،وكذا السماح بالعودة للذين خرجوا من البلاد بسبب أحداث المواجهة مع جماعة الإخوان المسلمين ، ورفع القيود الرقابية التي كانت تمارس على الكتب الدينية ، وكذا رفع القيود المتعلقة بالحجاب ، وصبغ البرامج الإعلامية بصبغة إسلامية وغير ذلك ، ومن مواقفه ــ رحمه الله ــ أنه كان يرى عدم جواز الخروج عن الحاكم ما لم يصل به الأمر إلى حد الكفر أو استباحة المحرمات كما يرى ضرورة نصحه باللسان ، وهذا سدا لباب الفتنة ، ولا طائل من وراء ذلك غير الدمار والفساد ، ومن المعلوم من الدين بالضرورة الذي أجمعت عليه كلمة الناطقين باسم الإسلام أن درء المفاسد مقدم على

جلب المصالح ، كما أن من القواعد الشرعية المعلومة لدى أهل العلم " العمل بأخف الضررين " ، وأن الوحدة والسلم في مقدمة العوامل التي جاء الإسلام من أجلها[1]

وأيا كان الأمر فإن الشيخ البوطي أحد الأعلام البارزين ، الذين رسخت أقدامهم في تربة العلم ، مما أهله ولوج عالم الإجتهاد في النوازل ، والموازنة بين المسائل ، والدراية الكافية بما يصلح به حال هذه الأمة ، ولعل هذه الوسطية النادرة ، وهذا الإعتدال البارز هو الذي جعل بعض الأيادي تتطاول عليه ، وتأبى إلا قتله .

استشهد الدكتور البوطي ــ رحمه الله ــ يوم الخميس 09جمادى الأولى 1434هـ ، الموافق لـ 21مارس 2013 م في مسجد الإيمان بحي المزرعة بدمشق ، إثر انفجار انتحاري أودى بحياته وهو بصدد إلقاء درس كعادته ــ رحمه الله تعالى[2] .

---

[1]– ينظر تفصيل ذلك في كتابه قضايا ساخنة ، دط ، دمشق : دار الفارابي للمعارف ، دت ، ص 121وما بعدها .

2–وقد تناقلت كل الجرائد والصحف نبأ وفاته ، ينظر – مثلا – جريدة الشروق اليومية ، الجزائر ، عدد 3971 ، بتاريخ 19 جمادى الأولى 1434ه ، الموافق لـ 21 مارس 2013م ، ص20.

– المبحث الثاني : أبرز الشخصيات التي أسهمت في تكوين نزعته الروحية .

هؤلاء الرجال الذين سنعرج على ذكرهم ، هم من أبرز الشخصيات التي وقف البوطي عند بعض المحطات من سيرهم ومواقفهم تأثرا بهم ، واستقاء من وميض روحانيتهم المتعالية تلك الروحانية السابحة في عالم الملكوت ، المحلقة في علياء الشهود ومعرفة المشهود ، المقيدة بموازين الشرع الحنيف ، وفي ذلك يقول : ((ولقد انطلقت من مواقفي وحديثي عن هذه الشخصيات من موازين الشرع الحنيف والمنطق العلمي أولا ، ثم من لوعة القلب والوجدان ثانيا .))[1] ، ومن هؤلاء :

1– شخصية الفضيل بن عياض (105هـ – 168هـ).

وهو الزاهد المشهور ، وأحد رجال الطريقة ، أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر التميمي الطالقاني الأصل[2] ، وهو من أبرز الشخصيات التي نفثت في روع البوطي شعلة الإيمان ، وذلك بما حوته من مشاهد التميز في سيرتها ،وأهمها مشهد التحول من أقصى التيه والضلال إلى أسمى درجات الهداية والعرفان ، وهو مظهر من مظاهر اللطائف الإلهية التي يتغمد بها عبده ،وإن شردته رياح الأهواء والفسوق والعصيان ، وهو مظهر يغمر كل واقف عليه متأمل فيه بنشوة بالغة .

إن هذا التحول في حياة الفضيل هو النقطة التي استوقفت البوطي ،وعزفت على أوتار روحه كلها، وأخذت بمجامع قلبه ، وجعلته يتساءل عن حقيقة ذلك ويجيب قائلا : ((لو سألتني عن سر هذه المشاعر التي تغمرني بنشوة بالغة ، من مظهر هذا الإنقلاب ،لقلت أغلب الظن أنني أستشف من خلال هذا المشهد بالغ لطف الله ورحمته بعباده الشاردين يقبل

---

[1]– البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 14.

[2]– ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، دط ، بيروت:دار صادر ،دت، ج4،ص47.

عليهم رغم إعراضهم عنه ،ويتحبب إليهم بالمزيد من نعمه وألطافه على الرغم من تجاهلهم لها مع استمتاعهم بها))[1] .

أما عن صورة هذا التحول ، وأسبابه ، فقد ذكر أصحاب التراجم والسير الذين تناولوا حياته ، أن الفضيل كان واحدا من قطاع الطرق في مدينة من مدن (نسا) بسمرقند ، وفي غمرة هذا التيه التقى جارية فعشقها ، وقرر بعد لأي أن يبلغ دارها ، فلما فعل ووصل إلى دارها راح يتسلق جدار بيتها ، غير أنه وقبل أن يهوي من على الجدار داخل البيت ، سمع تاليا ـــ في جوف الليل ـــ يتلوا قوله تعالى: ((**أَلَمْ يَانِ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ إِللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ أَلْحَقِّ وَلاَ يَكُونُواْ كَالذِينَ اُوتُواْ أَلْكِتَبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ أَلاَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**))[2] ، فقال : يا رب قد آن وخرج تحت ظلمة الليل إلى خربة بها قوم ، وأصغى إليهم ، فإذا بعضهم يود الرحيل ، وبعضهم يترقب الفجر خوفا من الفضيل فتاب وآمنهم ، وأخذ عهدا على نفسه ألا يعصي الله أبدا ، ثم جاور الحرم حتى مات[3] .

وعليه فإنه يمكن القول إن ذاك هو فضيل الأمس، فتاكا وقاطع طرق ،وهذا فضيل اليوم، فماذا عنه؟

عرف فضيل اليوم برقة قلبه وشدة ورعه وكثرة بكائه ، حتى إنه قيل عنه : مارأيت أحدا كان الله في صدره كالفضيل ، كان إذا ذكر الله عنده أو سمع القرآن ظهر به الخوف حتى يرحمه من في حضرته[4]، وقال عنه إبراهيم بن أشعث: ((ما رأيت رجلا يريد الله بعلمه وعمله ، وعطائه ومنعه ، وبغضه وحبه وخصاله كلها كالفضيل ، كنا إذا خرجنا معه في

---

[1]ـ البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 20.

[2] ـ سورة الحديد ، الآية 15.

[3]ـ إبن منظور ،مختصر تاريخ دمشق ،تحقيق مامون الصغرجي ،ط1،دمشق: دار الفكر (1406ه /1986م) ،ج20، ص300.

[4]ـ ابن حجر العسقلاني ،تهذيب التهذيب ،ط1، دمشق:دار الفكر(1404ه /1984م)، المجلد08 ، ص

جنازة لا يزال يغط ويبكي كأنه مـــودع لأصـحابه، ذاهـب إلى الآخـرة ، حـتى إذا بلـغ المقابر جلس مكانه بين الموتى من الحزن والبكاء كأنه رجع من الآخـرة يخـبر عنـها))[1] ، كمـا عرف بعلمه وزهده وإخلاصه ، ومن الأقوال المأثورة عنه في الصـدق مـع الله : ((مـا دخـل علي عبد إلا خفت أن أتصنع له أو يتصنع لي ،خـير العمـل أخفـاه ،وأمنعـه مـن الشـيطان وأبعده عن الرياء))[2] ، وكان يرى أن العلم ما كان مبناه اليقين ، فلـيس لأحـد أن يقـول مـا لا يعلم ، ولا أن يستمع إلى ما يشاء ويهوى ، وذلـك هـو حفـظ الجـوارح المـأمور بـه في قـــوله عـــز وجـــل :((**وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝**))[3] ، كما عرف بشدة صـلته بـالله وخشـيته لـه ، وقـوة أنسه به ، وكثرة ذكره للموت ، حتى إنه نقل عنه أنـه كـان يقـول :((اتخـذ الله صـاحبا ، ودع الناس جانبا ، كفى بالله محبوبا ، وبالقرآن مؤنسا ، وبـالموت واعظـا ، وكفـى بخشـية الله علما))[4] .

وما أثر عنه من أقوال في السياقات المذكورة أزيد مـن أن يحصـى في هـذا المقـام ، وهـي كلها تكشف لنا عن تلك الروحانية الرفيعة التي كان يتحلـى بهـا ، وهـي سـر سـعيه إلى الله وخوفه منه ، وسر ورعه وتقواه واستقامة ظاهره وباطنـه ، ومثلـه مضـرب الأمثـال في ذلـك كله .

وما من شارد عن سواء السبيل ينفق شيئا من وقته ــ الـذي ينفقـه في اللغـو والجـدل ــ في سبيل أن يطلع على هذه المناحي من حياة أمثال الفضيل ، إلا وتغمره نشـوة مـن حـب التوبـة والإستقامة التي تتبدد معهـا تلـك الظلمـات الداكنـة في القلـب ، وتنـزاح معهـا تلـك

---

[1]ـ شمس الدين الذهبي ،سيرأعلام النبلاء ، تحقيق محمود شاكر ،ط1،لبنان: دار إحياء التراث العربي (1427ه)ج6، ص304.

[2]ـ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق (مرجع سابق) ، ص 310.

[3]ـ سورة الإســـراء ، الآية 36.

[4]ـ ابن منظور ، المرجع نفسه ،ص 312و313 ، وينظر الذهبي في المرجع السابق ، ص 311.

السحائب التي تحجب العقل عن استقبال الأنوار الإلهيـــة ، وتتجـــه حينـــها الإرادة إلى الله تعـــالى، وتلك هي بداية السير إليه .

وهذا هو المقصد الذي يرمي إليه العلامة البوطي ، بل هـــذه هـــي النقطـــة الـــتي اســـتوقفته في حياة الفضيل ، وهي المعين النوراني الذي استوقد منه بعـــض أنـــواره ، وذاك مـــا أعلـــن عنـــه في نشوة من الخشوع ، قال : ((هذا الشعور كـــان ولا زال يهـــيمن علـــي كلمـــا وقفـــت علـــى الفاصل الزمني الدقيق بين مرحلتي حياة الفضيل بن عياض ، إذ كان شـــابا مســـرفا علـــى نفســـه معرضا عن ربه ،وإذ أصبح بعد ذلك ربانيا عابدا عالما زاهدا مقبلا على الله بكل كيانه))[1].

2- شخصية عبد الله بن المبارك (118هـ /181م).

شخصية أخرى مما أنجب تاريخنا الإسلامي العريق ، وهي تســـتحق الإنحنـــاء لهـــا ،والوقـــوف عند المناحي الروحية المضيئة من واحة سيرتها الشاسعة ، وذلك ـــ كمـــا هـــو مـــألوف ـــ بعـــد التعريف بها .

فهو أبو عبد الرحمان الحنضلي ، عبد الله بن المبارك بن واضـــح ، كـــان والـــده مـــن نســـب تركي ، وكان معروفا –هو الآخر– بالزهد والورع والتقـــوى ، زوجـــه مـــولاه إبنتـــه إعجابـــا بأخـــلاقه وأمانته، فأنجبت عبد الله ، وكانت نشأة عبد الله كســـائر الفتيـــان ، ممـــن يرغبـــون في اللـــهو والمرح ، ويميلون إلى الأهواء والشـــهوات ، كمـــا كـــان محبـــا للضـــرب علـــى العـــود وسماعه ، إلى غـــاية أن ودعه وتـــاب إلى الله ، وانقلـــب إلى دنيـــا العلـــم والزهـــد والـــورع ، وقصة توبته مماثلة تماما لقصـــــة توبة الفضيل بن عياض فيما ينقله المترجمـــون لـــه ، قـــال عبـــد الله يحدث عن نفسه :((كنت يوما في بستـــان وأنا شاب مـــع جماعـــة مـــن أتـــرابي ، وكـــان ذلك في وقت تنضج فيه الفواكه ، فأكلنا وشربنا ،وكنـــت مولعـــا بضـــرب العـــود ، فقمـــت في الليل وإذا بغصن يتحرك فوق رأسي، فأخذت العود لأضرب عليـــه ،فـــإذا بـــه ينطـــق قـــائلا:

[1]- البوطـــي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 20.

((أَلَمْ يَاٍ لِلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ. [1] الآيـــــــــــــــة))، فضربت بالعود الأرض فكسرته ، وجاء التوفيق من الله تعالى ،فكان ذلك مـــا ســـهل لنـــا مـــن الخـــــــير بفضل الله تعالى ورحمته))[2] ، وهذه الآية كانـــت فاصـــلا في حيـــاة ابـــن المبـــارك، كما كانت كذلك في حياة الفضيل من قبله ، وفيها تتجلى صفات الرحمـــة الإلهيـــة وهـــي تـــدق قلوب عباده الضعفاء[3] .

هذه النقطة تحديدا ـــ نقطة التحـــول ـــ هـــي أول مـــا اســـتلفت نظـــر البـــوطي ، وحـــرك وجدانه ، وزادته إيمانا ووجلا ، يظهر ذلك في قوله : ((كـــم أيقظـــت شـــاردين ـــ أي هـــذه الآية ـــ ونبهت غافلين ، وأرشدت تائهين ، عرفنا منهم قلة ، ولعـــل الكثـــرة منـــهم لم نســـمع عنها و لم نحط بها علما))[4].

كذلك من مواقف ابن المبارك التي وقف عندها البوطي ، وسرد كـــثيرا مـــن الشـــواهد الدالـــة عليها ، ما كان يتحلى به ابن المبارك من صـــلاح ، ومـــن عبوديـــة لله تعـــالى ، وتـــأثر بآيـــات كتابه الذي كان كثير التلاوة له ، بل إنه مما ذكر عنه أنـــه كـــان يتلـــوه فتنســـجم روحـــه مـــع آياته حتى إنه يأخذ بمجامع قـــلبه ، وتنتابه من ذلك أحوال عجيبـــة ، فيمضـــي يرددهـــا غيـــر متجاوز لها من بدأ صـــلاته بالليل حتى مطلع الفجر[5] .

---

[1]ـــ سورة الحديد ،الآية 15.

[2]ـ ابن منظور ، مختصر تاريخ دمشق (مرجع سابق) ، ج 12، ص 12و13.

3ـــ ذكر الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية ، أن إبن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ قال : ((إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن)) وتلا هذه الآية ، ينظر تفسير ابن كثير ، ط1 ، الجزائر : دار الثقافة ، ج06 ،ص 327.

[4]ـ البـــوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 51.

[5]ـ المصدر نفسه ، ص 56.

كما أن التصوف الذي كان عبد الله يتحلى به هو تصوف عملي ، فقد كان يحج عاما ويغزو عاما، فإذا حج قبض نفقة إخوانه وكتب على كل نفقة إسم صاحبها ،وهكذا عرف بكثرة أعمال البر ،قال في شأنه سفيان الثوري :((لو جهدت جهدي أن أكون في السنة ثلاثة أيام على ما كان عليه ابن المبارك ما استطعت))[1] .

ونقطة أخرى في حياة ابن المبارك تستوجب الوقوف عندها ، هذه النقطة هي أن ابن المبارك يمكن القول عنه أنه أعطى مفهوما جديدا للزهد ، لا يتنافى مع التملك والكسب، فهو على الرغم من أنه زاهد في أنعم الدنيا عازف عن ما فيها من متاع ،إلا أنه في الوقت نفسه كان ناشطا في مختلف أعمال التجارة ، وله من الأرزاق الكثير ،والحق أن هذا المفهوم الجديد الذي أعطاه للزهد إنما هو زهد القلب وأن تكون الدنيا ومتاعها جميعا في يده لا في قلبه ، وكل نعيم ساقته إليه الدنيا إنما هو وسيلة للتقرب إلى الله تعالى ونيل مرضاته ، وهذه النقطة هي الأخرى استوقفت الشيخ البوطي ، وبناء عليها أبان عن النهج الإسلامي فيها ، وهو المراد بقوله : ((النهج الأمثل في ميزان الإسلام ، وبه جاء كتاب الله وهدي رسوله ، وإلا لما عمرت الدنيا تحت سلطان المسلمين ، ولا تألقت لهم حضارة ، ولا ازدهرت بهم مدنية ، وإنما ينبثق الزهد من هذا النهج ذاته))[2] ،وهو دأب كثير من العلماء ، فقد كانوا يقصرون الزهد في الحرام دون سواه ــ أي تركه ــ ذلك لأن الحلال مباح من قبل الله ،فمن أنعم الله عليه بمال حلال وعبده بالشكر عليه ، فتركه له باختياره لا يقدم على إمساكه بحق إذنه[3] ، بل إن حاجة الدين للدنيا لا تقل أهمية عن حاجة الروح للبدن ، كما قال محمد الغزالي :((وأي تعليم يخل بقوى الأمة المادية ويمكن غيرها من التفوق عليها فهو خيانة لله ورسوله))[4] ، وهذا المعنى للزهد الذي كان عليه ابن المبارك ، ودرج عليه

---

[1]ـ أبو نعيم الأصبهاني ،حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ،ط3، بيروت:دارالكتاب العربي (1980م)، ج8، ص 84.

[2]ـ البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 60.

[3]ـ أبو القاسم القشيري ،الرسالة البيانية ، شرح زكرياء الأنصاري ،دط ،بيروت: دارالكتاب العربي ،دت ، ص 54.

[4]ـمحمد الغزالي ،ليس من الإسلام ، دط ،الجزائر: دارالمعرفة ، دت ، ص 178.

كثير من أهل العلم ، هو ما نجده في سنة النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ ومن ذلك قوله في الحديث الشريف ، " ليست الزهادة في إضاعة المال ، ولا في تحريم الحلال ، ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك " [1] .

وعلى كل فإن هذه هي المناحي التي استوقفت الشيخ البوطي من شخصية ابن المبارك، إنها صورة ذلك التصوف العملي الذي يأخذ حظه من الدنيا ، ويتخذ من ذلك الحظ وسيلة لطلب الآخرة ، فإبن المبارك على الرغم من وفرة ماله ،كان يقول عن الدنيا :((أهل الدنيا خرجوا من الدنيا قبل أن يتطعموا أطيب ما فيها))، قيل :وما أطيب ما فيها ؟ قال : ((المعرفة بالله عز وجل)) فهذا الفهم للزهد وللدنيا وما فيها هو الذي جعله مضرب الأمثال في الجود والإنفاق ، يقضي حاجة من كانت له حاجة ، ويسدد دين كل غارم ، وينفق على طلبة العلم وعلى الحجيج ، وهو ما جعله كذلك كثير الخلوات والطاعات ، فلا يكاد يسمع خبر جهاد إلا ويسارع إلى صفوف المجاهدين تاركا وراءه ماله الوفير وتجارته الواسعة لمشيئة الله وحكمه ، وكله يقين أن كلا من التجارة والجهاد وسيلة يسعى من خلالها العبد إلى معرفة الله والتقرب منه وبلوغ مرضاته [2] .

وأخيرا يمكننا القول أن ابن المبارك هو نموذج من النماذج التي جسدت التصوف العلمي والعملي في ساحة الحياة ، فكان أشد صلة بالله وفي الوقت نفسه أكثر حضورا في واقع الحياة ،ولقد أوضح البوطي أن سيرته من الحقائق النادرة التي لا تبرز إلا في حياة الأنبياء والرسل ، الذين كانوا منهجا شاملا لقضايا الدين والدنيا معا [3] .

1- رواه الترمذي في كتاب الزهد ، باب ما جاء في الزهادة في الدنيا ، ج2،ص 528 ، حديث رقم 2340 ، وقال عنه غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه ،ورواه ابن ماجة في كتاب الزهد ، ج2 ،ص1373 ، وقال عنه مثله كمثل الإبريز في الذهب .

[2]- البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 65.

[3]- المصدر نفسه ، ص 49.

3- شخصية أبو حامد الغزالي (450هـ /505م).

لا حاجة لنا في هذا المقام للحديث عن حياة الإمام الغزالي ، وذلك لذيوع صيته وشهرته الواسعة وإنما سنكتفي ـــ من ذلك ـــ بتسليط الأضواء على المناحي الروحية من حياته ، وأثرها في الجانب الروحي للبوطي .

يذكر الشيخ البوطي[1] أن للإمام الغزالي مكانة جليلة في قلبه وعقله معا ، وذلك منذ أول سيره في طريق المعرفة،وهذه المكانة مردها إلى أمور ثلاثة :

- الأول : وهو الموسوعية التي ميزت معارفه وعلومه ، فهو صاحب الإسم المتكرر في كل ضروب المعرفة الإنسانية[2] ، وهذه حقيقة ثابتة لدى كل مطلع على كتب الغزالي ، فهو فقيه وأصولي ومتكلم وفيلسوف وعالم نفس ومن أكبر المناطقة ، ثم صوفي سائر إلى الله عارف به ، يقول الغزالي وهو يتحدث عن نفسه مثبتا ما أثبته محبوه : ((ولم أزل في عنفوان شبابي مذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن وقد أنلف السن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور ، ـــ إلى أن قال ـــ وقد كان التعطش إلى درأ حقائق الأمور دأبي وديدني من أول أمري وريعان شبابي))[3] .

إذا فقد تبين أن التعطش إلى المعرفة ،والرغبة الجامحة في بلوغ الحقيقة ، كل ذلك فجر مواهبه ووسع مداركه ، وجعل منه موسوعة شاملة ، أضف إلى ذلك تتلمذه على أيادي

---

[1]ـ البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 79.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 80.

[3]ـ أبو حامد الغزالي، المنقذ من الضلال ، تحقيق جميل صليباوكامل عياد ،دط ،بيروت:دار الأندلس ،دت ،ص79و80.

الكبار ، من أمثال الإمام الجويني[1] ، والإمام نصر الإسماعيلي ، وكذا دخوله المدرسة النظامية ، فكل هذه عوامل نمت ملكته العلمية ، وجعلت منه موهبة نادرة.

– ثانيا : النزعة الروحية العارمة التي ارتقت إليها روحه وذلك بعدما خلصت من خداع الدنيا وأهوائها وأيقن أن ذيوع صيته بسبب غزارة علمه ليس إلا من عوارض الدنيا [2]، وبعد تجاوزه لهذه المرحلة المحرجة بدأ عهد الحياة الروحية ، حيث صفاء النفس ونور القلب ، وهو ما جعل البوطي يقول عنه في سياق تهجم الإمام الطرطوشي عليه ، أن الغزالي ((إنما ساقته العناية الإلهية في الشطر الثاني من عمره إلى اختراق صور الأعمال إلى بواعثها الكامنة وراء الصدر ، وإلى أن يصبر غور نفسه فيقف على ما يعانيه من باطن الإثم ليعالجه))[3] ، وهنا مكمن الجانب الروحي في حياة الغزالي ، عزلة يبحث في ظلالها عن الحقيقة ، وعلم يسعى من خلاله إلى بلوغ مرضاة الله ، وأذكار وأوراد يداوم عليها تصعيدا لروحه وترقية لأخلاقه .

– ثالثا : إن مما استوقف الشيخ البوطي من حياة الغزالي ، دقته في المنهج الفكري المعتمد لديه ، وهذا ما عبر عنه البوطي بقوله : ((الفكر المنهجي الدقيق الملازم له في كل ما يكتب ويبحث فيه ، أيا كان العلم أو الموضوع الذي يعالجه ، إلى جانب ما أوتي من القدرة النادرة على إفراغ المعنى في صياغة دقيقة وعبارة رشيقة ، وتطويع الأداة اللغوية لتصوير

1– يذكر أن الإمام الجويني كان مع علو همته وسمو مكانته وتمكنه من النطق ، كان لايصغي نظره للغزالي ، وذلك إخفاء لأناقته عليه في قوة الطبع وسرعة العبارة ، وأنه كان يخفي له خلاف ما يظهر ، ينظر إبن عساكر الدمشقي ، تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ، ط3، بيروت :دار الكتاب العربي (1984م) ، ص 292.

2– لقد قضى الغزالي شطرا من حياته يطلب العلم للدنيا ، ويبحث عن مكانة لنفسه من الشهرة وذيوع الصيت ، ثم جاءت مرحلة الشك الذي ظل يعتر ي نفسه ولا يجد خلاصا منه ، فعزم على الرحيل إلى الشام ، وأقام به مدة سنتين ، مشتغلا بتزكية نفسه وتطهير قلبه ، وهي مرحلة جديدة من حياته ، (ينظر الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص 134)، وينظر : عبد الرحيم الآسنوي ، طبقات الشافعية ، ط1، (1987م) ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ج2 ، ص 112.

3– البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 81.

ما يريد أن ينهيه إلى ذهن القارئ من المعاني والأفكار))[1] ، ومرد ذلك إلى رغبته الجامحة في البحث عن الحقيقة ، والعلماء الأكفاء الذين تتلمذ عليهم ، وكل ذلك مكّن له بلوغ هذه المنزلة التي يعترف له بها مادحيه وقادحيه [2] .

وغاية ما يمكن نخلص إليه ، أن الغزالي طفرة روحية وعقلية لا يكاد الزمن يجود بمثلها ، وجذوة إيمانية يستمد من نورها كل سائر إلى الله ، عارف به ، وهو في مقدمة الشخصيات التي استلهم منها الشيخ البوطي أنوار وجدانه وعقله ، فجاء ـــ تبعا لذلك ـــ حديثه نابعا من سراج قلبه المتوقد بلوعة الحب ، وكأن الجفاء ظل سبيله إليه .

4– شخصية جلال الدين الرومي (604ه /672ه).

جلال الدين الرومي هو شاعر من أعظم الشعراء الأفذاذ في الأدب الإسلامي ، وينحدر من مدينة بلخ الواقعة في أفغانستان ، ولقب بالرومي نسبة إلى بلاد الروم ، وكان أبوه عالما فقيها على المذهب الحنفي ، وميالا إلى الفكر الصوفي ، وهو ما انعكس على حياة ابنه جلال الدين وظهر في أشعاره.

هاجر جلال الدين إلى أرض الشام ، فأقام في حلب ، ثم في دمشق في فترة كان يتواجد بها الصوفي الكبير محي الدين بن عربي ، وإن لم يظهر في أشعار جلال الدين أي تأثر به [3] .

---

[1]– البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 80.

2– لعل من أكبر الذين سلّطوا ألسنتهم على الإمام الغزالي الدكتور زكي مبارك ، في كتابه " الأخلاق عند الغزالي" ، ومع ذلك يأبى إلا أن يعترف بجمال منهجه في البحث والتأليف ، ينظر زكي مبارك ، الأخلاق عند الغزالي ،ط1، (1408 ه) ، بيروت :دار الجيل ، ص 101و102، أما مادحوه فهم كثيرون ، منهم الإمام النووي ، والإمام الكازورتي ، (ينظر : الغزالي ، إحياء علوم الدين ، تحقيق الحافظ العراقي ، ط1، 1992م ، بيروت ودمشق : دار قتيبة ، ج5 ، ص 11.)

3– ينظر ترجمته الكاملة في : عبد السلام كفافي ، في الآداب المقارن ،دط، (1972م)، بيروت:دار النهضةالعربية، ص 487.

ولقد قضى جلال الدين الرومي شطرا من حياته في التدريس ، يمد طلابه بعلوم ومعارف على نحو ما جرت به العادة ، وخلال تلك المرحلة كلها لا نقف على أي ملمح من ملامح المنحى الروحي ، وهو ما يطرح التساؤل حول سر تأثر العلامة البوطي به ، واغترافه من ذلك النهل الروحاني الذي تدفق في حياته ؟

إن الحياة الروحية عند جلال الدين إنما تدفقت في المرحلة الثانية من عمره ، إذ حدث هذا التحول من الإلتزام بأحكام العقل وقواعده ، إلى ولوج عالم الوجدان والغوص في دنيا الأذواق ، والوقوف على الحقيقة كما ينبض بها القلب ، لا كما يسوقها العقل مكبلة بالأحكام والموازين ، وهذا التحول كان على يد رجل صوفي كبير ساقه الله إليه ،ويدعى شمس الدين التبريزي ، وهو شيخ بلغ من العمر الستين وكان جلال الدين يرى فيه صورة الإنسان الكامل ، صحبه مدة حولين فأثمر فيه هذا التحول، وإن كان الرجل ميالا إلى التصوف من قبل [1] ، وأيا كان الأمر فإن دور الإمام التبريزي إنما يكمن في تفجير تلك القوة الروحية في قلب جلال الدين ، حيث إنه كان بينهما لقاءات متكررة لم يشترك معهما فيها أحد سواهما[2] ، وهو ما أوقد لوعة الحب في قلب شاعرنا ، واكتسى بذلك كيانه الفكري شعاعا من لوعة هذا الحب ، فاتخذ إلى معرفة الحقائق الكونية طريق الحب ، وراح ينظر إلى الكون كله بمنظار الحب ، وعبّر عن ذلك بأنغام كان يصوغها في شاكلة حكم وألغاز ، وهذه هي ميزة إبداعه لأدب صوفي أو تصوف أدبي منقطع النظير ، بل إنه أوصل حقائق العقيدة والشريعة والأخلاق عبر هذا الجسر الأدبي الرائع ، وهذه نقطة من النقاط التي لقيت صداها عند البوطي ، وأثارت وجدانه إلى حد بعيد .

[1]- محمد عبد السلام كفافي ، في الأدب المقارن (مرجع سابق) ، ص 489.

[2]- البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 134.

ثم إنه بين يدي الحديث عن شخصية جلال الدين الرومي ، يمكن الوقوف على نقطة أخرى ، ألا وهي فهمه الإيجابي للتصوف ، فهو لم يجعل منه حائلا بينه وبين الإقبال على مهامه التعليمية، و لم يتخذه ذريعة يدع من خلاله إلى الفرار من أنشطة الحياة ووظائفها .

ومما يستدعي الوقوف عنده بتريث ، اعتماده المعرفة الذوقية ، أو سبيل الإنابة والقصد بدلا من سبيل العقل وأحكامه ، فهو يعيش معاني الدين وأحكامه من حلال الذوق والمعانات ، أو ما يعرف بالتجربة الحية ، وطريقها التزكية وتحلية القلب وتقوية الروح ، حتى يغدو القلب مجلوا يستقطب الحقائق ، لتكون النتيجة في الأخير هي نفسها التي يتوصل إليها صاحب العقل ومتّبع الحس ، وهذه نقطة أخرى كذلك من النقاط التي أثّرت في الشيخ البوطي واستوقفته ، بل وملكت عليه عقله ووجدانه ، لا سيما وأنه من الأعلام المؤكدين للمنهج العرفاني الذوقي ، ولذلك أمدنا بأمثلة يؤكد من خلالها صدق المعرفة الإلهامية ،ومدى تطابق نتائجها مع نتائج المعرفة العقلية والحسية، وسنكتفي بمثالين من الأمثلة التي ساقها الشيخ البوطي من خلال أشعار جلال الدين الرومي ، حتى يتضح الأمر وتزول الشكوك :

– المثال الأول : ذهب أهل العلم إلى أن روح الإنسان هابطة من الملأ الأعلى ، وهي حبيسة هذا الجسد الذي تسكنه ، وإنها لتظل أبدا مشتاقة إلى ذلك العالم الذي هبطت منه ، وحجبت عنه في غياهب هذا الجسم الترابي ، غير أن أهواء الشهوات تظل تعصف بها وتحولها إلى حساب الجسد وصالحه ، وكثيرا ما تنسيها أصلها الذي جاءت منه ، وانظر كيف أن شاعرنا يصور هذا المعنى العميق في قصة الناي ، الذي ليس هو إلا عودا قطع من شجر الغابة ، وقد كان يوما جزء منها يأنس بها ، وفي هذا يقول شاعرنا :

استمع إلى الناي كيف يقص حكايته ..... إنه يشكو آلام الفراق ويقول :

إنني منذ قطعت من منبت الغابات والناس رجالا ونساء يبكون لبكائي .....
إنني أنشد صدرا مزّقه الفراق ، حتى أشرح له ألم الإشتياق .....

فكل إنسان أقام بعيدا عن أصله ، يضل يبحث عن زمان وصله ..... لقد أصبحت في كل مجتمع نائح ، وصرت قرينا للبائسين والتعساء ..... وقد ظن كل إنسان أنه أصبح لي رفيقا ، ولكن أحدا لم ينقب عما كمن في باطني من الأسرار .....

إن الناي نديم لكل من فرقه الدهر عن حبيب ، وإن أنغامه قد مزقت ما يغشّي أبصارنا من الحجب .....

إن الناي يروي لنا حديث الطريق الذي ملأته الدماء ، ويقص علينا قصص عشق المجنون.....

وهذه القصة ترمز إلى الحب والمعاناة التي يعيشها الصوفي ، وتصور لنا حنين الروح إلى أصلها من خلال قصة حنين الناي إلى أصله ، وهي نفسها الحقيقة التي يقررها القرآن الكريم في قوله تعالى : ((فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٢٩))[1] ، ومعلوم أن كلمة " روحي " نسبت فيها الروح إلى الله تعالى.

– المثال الثاني : يذكر لنا البوطي [2] مثالا آخر مداره على قصة حنين الجذع ــ الذي كان يخطب عليه النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ إليه لما فارقه إلى المنبر الذي أقيم له بدلا عنه ، فراح الجذع يترجم حنينه إلى كلمات لا تسمعها الآذان ، ولا تحصرها الكلمات ، وإنما ترصدها الروح الرقيقة الصافية[3] وهذا الجذع ــ كما يقول جلال الدين – لم يحتج عقلا يفكر به ، ثم يروي لنا قصة حنينه ، فقد أغناه عن ذلك ما أودعه الله فيه من أسرار، ولا حيلة للعقل في فهمها ، ليصل بنا الشاعر أخيرا إلى خطاب يتوجه به إلى الإنسان ليقول

[1]ــ سورة الحجر ، الآية 29.

[2]ــ البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 140و141.

[3]ــ صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الخطبة على المنبر ، مجلد1 ،ج 1، ص 220، رقم الحديث 438،

له : كيف ترضى أيها الإنسان أن يكون الجذع أرق منك شعورا وأنت الذي خلقك الله في أحسن تقويم ، وبث فيك أسرار ملكوته ، وميزك بذلك القلب النابض ، والعقل المفكر، وهذا ما عبّر عنه شاعرنا فقال :

- لقد كان الجذع الحنان ينوح ، من جرّاء هجر الرسول ، كأنه من أصحاب العقول .
- قال له الرسول : ماذا تريد أيها الجذع ؟
- قال الجذع : إن روحي أصبحت بك دما .
- لقد كنت لي مستندا ، فتخليت عني ، واتخذت لك مستندا فوق رأس المنبر .
- قال له الرسول : أتريد أن تصبح نخلة سحوقا يجتني منها الشرقي والغربي ، أم تريد أن تغدو في هذا العالم سروا يغرس في أعلى رابية ، ويبقى ريانا نضرا .
- قال له الجذع : إنني أبتغي ما يدوم له البقاء ، أبتغي القرب منك .
- ألا فلتستمع إلى ذلك أيها الغافل ، ولا تكن أقل إدراكا من الخشبة .

وعلى كل فهذه مجموعة أشعار ينقلها لنا البوطي من مثنوي[1] جلال الدين الرومي ، ويصور لنا من خلالها وجدانه الثائر ، وتأثره العميق ، بهذا الحال الذي كان يعيشه جلال الدين ، ومن قبله ومن بعده كثير من العارفين بالله الواصلين إليه ، من أمثال علي بن أبي طالب ، ومعاذ بن جبل ، وعمران بن حصين ،ومن قبلهم جميعا سيد الخليقة محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ في قوله الشريف ((اللهم بالرفيق الأعلى))[2].

وينقل لنا البوطي ما يدل صراحة على تأثره العميق بهذا الذي عيشه جلال الدين فيقول: ((لقد شاء الله لي أن أسير خلال رحلتي العلمية والفكرية في دنيا الناس هذه ، في طريق محفوف بلوحات الجمال المرئية والمسموعة ، عن يمين وشمال ... ولقد ذاب قلبي منذ نعومة

---

[1]ـ المثنوي : هي كلمة فارسية ، ويقابلها باللغة العربية :(مزدوج) ، ويقصد بها أن لكل بيت من القصيدة قافية خاصة به.

2ـ الحديث رواه البخاري في باب : من أحب لقاء الله أحب الله لقائه ، كتاب الرقاق ،مجلد4، ج7 ،ص191 ــ ورواه كذلك بصيغة مقاربة في باب : سكرات الموت ، مجلد4 ،ج7 ، ص 192.

أظفاري بما كانت تتقد به تلك اللوحات من نور ونار ، غير أني لم أحبس نفسي ولا عيني ولا أذني أمام أي من تلك المناظر والصور، و لم أتوقف ــ رغم افتتاني بكل ما أسمع وأرى ــ عن متابعة المسير ، فقد كنت ولا أزال أسمع نداء يصيح بي من أعماق كياني ، تتبّع السير ولا تتشاغل بما ترى ، فإن مصدر الجمال وسر كل ما تراه عيناك أو تسمعه أذناك ماثل أمامك ، ليس بينك وبينه إلا حجاب المسافة ، فاخترقها بالمسير نحو ما هو أمامك ، ولا تقطع نفسك عن مواصلة الرحلة بالسير في متاهات السبل المتعرجة عن يمينك أو عن شمالك ، ... وها أنا أرى بوارق الجمال الإلهي الحق أمامي))[1] ، وواضح تأثر الشيخ البوطي بشخصية جلال الدين الرومي ، ذلك أن هذا الأخير أوصل الحقائق الشرعية والأخلاقية من خلال معاناته وعرفانه ، وكانت مطابقة لأحكام العقل والنص ، والبوطي أراد أن يثبت رؤية المكون من خلال الكون ، وهو ما يعرف بوحدة الشهود .

5- شخصية بديع الزمان النورسي (1293هـ /1379هـ)

ولد سعيد بن ميرزا النورسي في قرية من قرى خيزان ، التابعة لولاية بتليس شرقي الأناضول ، وتسمى قرية نورس ، ولذلك كانت نسبته إليها في تسميته النورسي . عرف النورسي منذ صباه بحبه للعلم وتأثره بالعلماء ، مما دفعه للبحث عن المدارس في مختلف أنحاء القرية التي ولد فيها ، حتى عثر على يسمى محمد افندي ، والذي بدأ تعليمه على يديه ، وكان أخوه الأكبر يلقنه ــ إضافة إلى ذلك ــ بعض الدروس في نهاية كل أسبوع ، كما تتلمذ على يد شيوخ آخرين في القرى المجاورة ، وبدأ يظهر تميزه عن أقرانه ، حتى إنه غدا معروفا باسم " تلميذ الشيخ " ، وما إن بلغ الثمانية عشر من عمره حتى أصبح

[1]- البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 152.

في عداد العلماء[1] ، بل إنه أصبح حديث المجالس بين الطلاب والعلماء ، وكانو يلقبونه بـ " سعيدي المشهور "[2] .

ويمكن القول إن حياة النورسي تتألف من شطرين ، الأول وتظهر فيه اهتماماته بالسياسة، حيث عرف خلال هذه الفترة بمطلق صراحته وقوة معارضته للأمور ، مما أدى به إلى أن يزج به في السجن في العديد من المرات ، وهذا الجانب من حياته لا يعنينا كثيرا ، وإنما الذي يعنينا الوقوف عنده هو الشطر الثاني من حياته ، والذي كانت بدايته من سنة 1921م ، إذ إن هذه السنة تعد نقطة تحول في حياته ، بل إنه هو نفسه أصبح يطلق على نفسه إسم " سعيد الجديد " .

والجديد في حياة النورسي بدء من هذه السنة هو تحرر نفسه من الإشتغال بالعفن السياسي ، وتدفق المعاني الروحية في حياته ،وهذه هي النقطة الأهم التي سلط الشيخ البوطي إهتمامه عليها وبديع الزمان نفسه استقبل هذه المرحلة بقوله : " أعوذ بالله من الشيطان والسياسة "[3] ، بل إن حياته منذ سطوع فجرها قامت على الزهد والتقشف والورع ، مما يجعلنا نقول إن حياة النورسي هي حياة الرجل الصوفي السالك للطريق منذ البداية ، وإن كان ظهور ذلك قد تأخر ، والشيخ البوطي يحدثنا عن ملامح الحياة الروحية عند النورسي فيقول : "كان يتخذ من مبدأ دع ما يريبك إلى ما لا يريبك دستورا لحياته ، وكان يسير به هذا الدستور نحو الورع والحيطة في جميع شؤونه ، حتى إنه كثيرا ما كان يقتات بالأعشاب ... وكان يحرص دائما على أن يترك شيئا من طعامه للنمل ... وكان

1- ينظر ترجمته كاملة في : سمير رجب محمد ، الفكر الأدبي والديني عند الداعية الإسلامي بديع الزمان النورسي ، ط2، (1995م)، القاهرة : مطبعة المدني .

[2] - البوطي : من الفكر والقلب (مصدر سابق) ، ص 245.

[3] - المصدر نفسه ، ص 258.

شغوفا بطول الإقامة عند قبر الشيخ أحمد الخاني ، الشاعر الكردي المشهور ، على الرغم من الوحشة المحيطة حول القبر "[1] .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على سموه الروحي وترقيه الأخلاقي ، وكذا علو همته ، وذلك منذ نشأته ، بل إن طاقته الشبابية لم تتفجر يوما إلا في الدفاع عن الفضيلة ، ونصرة الحق ، وخدمة الدين، وما يزيد الصورة وضوحا ، تلك القصة التي اشتهرت عنه ، والتي مفادها أنه رأى ذات ليلة في منامه الشيخ عبد القادر الكيلاني يخاطبه قائلا : ملا سعيد : اذهب إلى مصطفى باشا رئيس عشيرة ميران ، وادعه إلى الهداية واجتناب الظلم ، وإقامة الصلاة والأمر بالمعروف ، فإن لم يستجب لك فاقتله ،فلما كان اليوم الموالي ذهب إليه ودخل خيمته ، وانتظره حتى دخل الخيمة .

وقام له كل الجالسين عدا بديع الزمان ، فلما سأل الباشا عنه مستغربا ، قيل له إنه الشيخ سعيدي المشهور ، فكظم الباشا غيظه سأل سعيد : – لماذا جئت إلى هنا ؟ – جئت لإرشادك إلى الحق ، فإما أن تقيم الصلاة وتتخلى عن الظلم وإما أن أقتلك . وهدّأ الباشا أعصابه ، ثم وجّه إليه السؤال نفسه ، وتلقى منه الإجابة نفسها ، مما أوقد في نفسه شعلة الغضب ، ولكنه هدّأ أعصابه ثانية ، وآثر أن يجمع العلماء لمناقشته ، وإقامة الدليل عليه ، وفعل ذلك، ولكنه خسر الرهان ، وخضع للنورسي كارها [2] ، وهذه القصة تصور مرحلة الإندفاع عند الشباب ، وتلك الثورة الروحية المتدفقة ، وإن كانت عند رجل كسعيد لا تتدفق ولا تتحرك إلا في خدمة الدين والحق ، ولذلك سرعان ما انصرفت هذه الروحانية عن السياسة وتياراتها المتضاربة إلى عالم الأخلاق والفضائل ، والذي فيه يتم التعرف على الله ، وفي هذا يقول البوطي:((وإذا تنامت مشاعر الإخلاص في قلب الإنسان فأصبحت أعماله خالصة لله

[1]ـ البوطي ، من الفكر والقلب (مصدر سابق) ، ص 246.

[2]ـ أحمد بمجت ، رحلة في عالم النورسي ، دط ، القاهرة : دار النصر ، دت ، ص 17.

وحده ، لم يعد يقبل بوجود أي من الشوائب التي من شأنها تعكر صفو توجهه الخالص إلى الله وحده))[1] ، ذلك أن خدمة الإسلام داخل الأطر السياسية غالبا ما تحول الغرض إلى مطمع دنيوي يركن بصاحبه إلى خدمة المصالح والأغراض ، وإن تستر برداء الدين ، وهذا ما يشين الإخلاص الذي هو أهم ركن في قبول الأعمال وطلب التقرب إلى الله بها ، وهذا ما يراه النورسي من خلال احتكاكه بالسياسة، وهو المعنى الذي تزفه عبارته التي نقلها عنه البوطي ، ويشاطره الموقف فيها ، يقول النورسي : ((إن أهم سبب لهذا الإجتناب ، وعدم الإهتمام بالتيارات الجارية ، هو الإخلاص الذي هو أساس مسلكنا ، فالإخلاص هو الذي يمنعنا عن ذلك ، لأن في زمن الغفلة هذا ولا سيما بالنسبة إلى من يحمل أفكارا موالية لجهة معينة ، فإنه يحاول أن يجعل كل شيء أداة طيّعة لمسلكه ، ... بينما الحقائق الإيمانية والخدمة النورية المقدسة ، تأبى إلا أن تكون وسيلة لأي شيء في الكون ولا يمكن أن تكون غاية لرضا الله سبحانه))[2] . وعلى أية حال فإن الطرق إلى الله كثيرة ، وهي ـــ كما قيل ـــ بعدد أنفاس الخلائق ، إلا أن بعضها أقرب من بعض ، ومنهج العارفين بالله أن الوصول إلى الله لا يكون به ومن طريقه هو ، وهو ما كان عليه النورسي ، إذ جعل طريقه إلى الله ـــ بدلا عن السياسة ـــ الإفتقار إليه ، والتفكر في آياته ، وذكره وشكره ...

والعجز والإفتقار ((كالعشق طريق موصل إلى الله ، وهو يوصلك إلى المحبوب بطريق العبودية ... أما الفقر فيوصل إلى اسم الرحمن ،وكذلك الشفقة كالعشق توصل إلى الله ،إلى اسم الله الرحيم ، والتفكر كذلك كالعشق إلا أنه أسطع نورا وأرحب سبيلا ، وهو يوصل إلى إسم الله الحكيم ، والمقصود بالعجز والفقر والشفقة إظهار ذلك كله أمام الله وليس أمام الناس))[3] ، وهذا ما كان عليه النورسي.

---

[1]ـ البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، 163.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 164.

[3]ـ أحمد بهجت ، رحلة في عالم النورسي (مرجع سابق) ، ص 49.

فقد انتقى لنفسه أقرب الطرق إلى الله ، بعد تجربة سياسية طويلة ومريرة ، وهو على يقين أنه ((من الصعب الحفاظ على سر الإخلاص في خضم الصراعات المتنافرة للتيارات الحالية ، ومن العسير الحيلولة دون جعل الدين وسيلة لمكاسب دنيوية ، ولذا فإن أفضل علاج هو الإعتماد على العناية الإلهية وتفويض الأمر إلى توفيق رب العالمين ، بدلا من الإعتماد على التيارات السياسية))[1] ، ولا نشك أن دوافع كتابة البوطي عن النورسي ، والوقوف على جوانب كثيرة من حياته ، والتنويه بالعديد من مواقفه ، إنما مرده إلى الخاتمة التي انتهى إليها النورسي ، وهي اختياره طريق العارفين بالله بدلا عن مختلف الطرق الأخرى ، بل وهو ما يتضح من قوله : ((غير أنني أشعر وأنا أمسك قلمي لأخط ترجمته في هذه الصفحات القليلة بنشوة تهز أعماق نفسي ، إنني أحس أني أصور بهذا ما ينبغي أن تكون عليه حياة المسلم الصادق في إسلامه ، والداعية الصادق في دعوته ، والعالم المخلص لدعوته ... غير أن هذا ليس هو وحده سبب ما أشعر به من نشوة وسعادة ... ربما كان السبب أنني أعثر في حياته العظيمة الحافلة بمظاهر الإخلاص والجهاد والتفاني ، على ما لم نعد نعثر على شيء منه في حياة معظم علماء الإسلام ودعاته في بلادنا اليوم))[2] .

كذلك مما يدل على أثر سعيد النورسي في البوطي ــ رحمهما الله تعالى ــ ، أن الشيخ البوطي يحمل النداء نفسه الذي حمله من قبله النورسي ، ويتوجه به إلى علماء الشام بصورة خاصة ، قائلا لهم : ((أما آن الأوان أن تطووا بساط الصراعات والخلافات التي لم تجنوا منها غير الفرقة والبغضاء والعداوة ، أما آن لكم أن تطهروا أنفسكم من الإنتصار للذات ، أما آن لكم أن تكفوّا عن ذلكم الجدل العقيم ، وتشغلوا أنفسكم بما يصلح به حال هذه الأمة ، على نفس السبيل التي سلكها من قبلكم أخا لكم يقال بديع الزمان))[3] .

---

[1]ـ البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 164.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 244.

[3]ـ البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 270.

6- شخصية مصطفى السباعي (1334هـ /1384هـ).

الدكتور مصطفى حسني السباعي شخصية بارزة في الساحة العلمية والثقافية الإسلامية، وذلك من خلال العديد من مؤلفاته التي غطت الكثير من مناحي المعرفة الإنسانية والإسلامية ، ومن أبرز هذه المؤلفات : - أحكام الصيام وفلسفته – الإستشراق والمستشرقون – المرأة بين الفقه والقانون – شرح قانون الأحوال الشخصية – نظام السلم والحرب في الإسلام – السنة ومكانتها في التشريع إلخ... وهي مؤلفات تدور في جملتها حول أحكام الفقه الإسلامي ، وبعض قضايا المعرفة والفكر عموما .

يذهب الدكتور البوطي إلى أن هناك كتاب من بين هذه الكتب التي خلّفها السباعي ، يحمل سمة خاصة ، جعلته يتميز بها عن سائر مؤلفاته ، وهو كتابه " هكذا علّمتني الحياة" والذي ظمّنه ((جمال خاشع يسبح في مزيج من الإشراق الإلهي العظيم ، والسعادة الروحية الصادقة ، والحكمة البديعة ، والذوق القلبي الذي يكرم الله به عباده العرفين))[1] ، وذلك هو السر الذي استوقف العلامة البوطي ، وجعله يكتب عنه متأثرا به ، مغترفا من حنينه وأشواقه وروحانيته النادرة .

وللإشارة فإن هذا الكتاب هو جملة من الخواطر ، صاغها السباعي على النسق الذي تصاغ به الحكم، وفي فترة قضاها في المستشفى ، وكان حينها في عزلة عن الأهل والولد والناس جميعا ، بل وفي عزلة عن التدريس والتأليف أيضا ، وأتم ما لم يتمكن من إتمامه بعد مغادرته المستشفى ، وعلى فترات متباعدة بحسب ما تدفعه إلى ذلك الظروف والمناسبات ، وهكذا إلى أن تجمّع لديه القدر الذي رأى أنه يسد حاجة القارئ ، ورأى

[1]ـ المصدر نفسه ، ص 197.

أنه من الخير الإستجابة لرغبتهم في نشر الكتاب ، آملين أن يتحقق به النفع ويحصل به الثواب[1] .

كما أن هذا الكتاب هو ــ كما ذكرنا ــ جملة من الخواطر ،استقاها صاحبها من مناظر رآها ، وتجارب عايشها واستفاد منها ، وعبر عن ذلك كله بعفوية تامة ، بمنأى عن أي تكلف وتعقيد ،بل إنها أملتها عليه نفسيته الرقيقة الشفافة ، وأوحاها إليه إحساسه المرهف الرقيق ، فجائت مضامينها صوفية نقية من كل زيغ ومن كل تحريف ، فهي لا تعدو أن تكون حديثا عن الأخلاق والدعوة إلى التحلي بها ، وعن الرحمة والتنمذج بها ، والسير إلى الله وكيفيته وحقيقته ، ومختلف أمراض القلوب والسبيل إلى التطهر منها ، ولما كان أمرها كذلك كان لها امتداد عميق في قلب البوطي ،جعله يهتف بكل قلبه وبملأ فمه ليقول :((تلك هي طبيعة المسلم الصادق في إسلامه ،عمق في الإحساس ،وصفاء في النفس، ورقة في القلب ... وثورة في العزم وحزم في الإرادة))[2] ، والعبارة الأكثر دلالة عن هذا التأثر ، والتي يمكن أن نستفيد منها أن السباعي مرجعية روحية كبرى للشيخ البوطي ، هي قوله : ((وجدت فيه متعة روحي ووجداني ، ولقد استفقت من هذا الشعور على نوع من الضمأ الذي أعانيه ، بل ويعانيه معي كثير من الشبان المسلمين ... ، إنه ضمأ الروح إلى مناجاة خالقها ، والإنتهال من معين حبه والتبتل لعظمته وحكمته وجلاله))[3] ، ولا عجب والشيخ البوطي ــ بغض النظر عن الشيخ السباعي ــ يجعل من الجانب الأخلاقي والروحي سر التفوق ، ولا أثر لرسوم الظاهر في واقع الناس وحياتهم ما لم تتوج بسلامة القلب ، وما لم تتحلى بجمال الخلق ، وهو ما عبر عنه في موضع آخر بقوله :

---

[1]ــ مصطفى حسني السباعي ، هكذا علمتني الحياة ، ط1، دمشق : دار الوراق ، 1990م/1420هـ ، ص 7.

[2]ــ البوطي ، شخصيات استوقفتني (مصدر سابق) ، ص 198.

[3]ــ المصدر نفسه ، ص 198.

((فإذا لم يتوفر الإخلاص لله في القلب لم تثمر الطاعات الظاهرة على اختلافها ، أي قرب إلى الله جل جلاله ، وإذا لم تتهذب النفس بالأخلاق الفاضلة التي أمر الله المسلم بأن ينسج منها ثوبا خفيا لها، لم يغنها أي غناء ما قد تلبسه على مرأى من الناس من ثوب الصلاح والتعبد والتقوى))[1] ، ولذلك وجد هذا الكتاب ــ هكذا علمتني الحياة ــ قبولا في نفس البوطي ، وقاسمه المعاني ، واتحد معه في الهدف المنشود .

كذلك مما يدل على أن السباعي من أبرز الشخصيات التي ساهمت في تكوين نزعة روحية ثائرة ، وحرقة قلب متدفقة ، بين جوانح الشيخ البوطي ، هو كتاباته عنه في أزيد من موضع ، وكان في كل مرة يكتب عنه بنفس شديد ورغبة جامحة في الكتابة ، كتب عنه في الذكرى الثانية لوفاته ، وضمّن ما كتبه كتابه "من الفكر والقلب"[2] ، وكتب عنه ثانية في كتابه " شخصيات استوقفتني " ، مبينا البعد الوجداني في شخصيته من خلال كتابه المذكور .

---

[1]ــ البوطي، باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين ، ط2، قسنطينة : دار البعث (1987م) ، ص16.

[2]ــ ينظر البوطي ، من الفكر والقلب (مصدر سابق) ، ص 225.

– المبحث الثالث : مؤلفـــــاته وآثاره العلمية .

1 مؤلـــــــــــفاته :

خلّف الشيخ البوطي عددا لا يستهان به مـــن المؤلفـــات ، غطـــت مختلـــف منـــاحي المعرفـــة الإسلامية ،وكان لها انتشار واسع في سائر ربوع القطر الإســـلامي ، ومـــن الصـــــعوبة بمكـــان ـــ فيما نرى ـــ تصنيفـــها ووضعها في خانات من التخصصات ، وذلـــك لأنهـــا جميعـــا يغلـــب عليها الطابع الوجداني من جهة، ومن جهة أخرى فإن الكتاب الواحد أحيانـــا قـــد يجمـــع بـــين أكثر من مجال ، ويتناول أكثر من تخصـــص ، وبذلك فإن تقسيمها وتصـــنيفها إنمـــا هـــو علـــى سبيل التقريب لا أكثر ، ولقد اعتمدنا تصنيفها كالآتي :

– **في مجال الروحانيات** : ويمكننا أن نميز بين جملة من مؤلفاته هي :

أ– باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين : وهو كتاب مداره على وصف دقيق لأخطـــر داء فتك بالمسلمين في هذا العصر خاصة ، وهو علل القلب وعلته ، من حسد وبغضاء وريـــاء وطلـــب للدنيا ونحو ذلك ، وما ينتج عن ذلك من تفكك لوحدة المجتمع المسلم ، وما يترتب من آثار سلبـــية جرّاء ذلك على العمل الإسلامي ، ثم قدّم علاجا لذلك ، مبينا سبيل الوصول إليه ، كما تنـــاول في هذا الكتاب وقفة شرح من خلالها الفرق بين التصوف الأخلاقي والتصوف الفلسفي ، لينتـــهي في الأخـــير إلى أن مشكلة الأمة إنما هي مشكلة أخلاق تنير القلب ، لا مشكلة فكر يشبع العقـــل .

ب – الحكـــم العطائية ، شرح وتحليل : وتناول فيه شرح واف لحكم الصوفي الكبير ابن عطاء الله السكندري (ت709هـ) ، كاشفا على تلك الأسرار الربانية التي أودعها إبن عطاء الله حكـــمه ، و بطريقة واضحة بعيدة عن التعقيد ، في متناول فهم المسلم المعاصر ، وقد طبعتها دار الفكر بدمشق سنة2000و2001م ،في خمسة أجزاء ، ثم طبعت مرة ثانية في خمس مجلدات .

ج– من الفكر والقلب : احتوى هذا الكتاب على موضوعات متنوعة ،أضفى عليها مؤلفها لمســـة روحية مؤثرة ، تخللتها بعض القضايا الفقهية التي كثيرا ما تعلق في أذهان الناس ، كمشكلة الرق في

الإسلام ، ومشكلة عمل المرأة ، ومسألة المصلحة المرسلة إلخ... ، كما تطرق فيه إلى الحديث عن بعض الشخصيات الإسلامية ، التي جمعها تلك الروحانية المتدفقة وإن فرقتها العصور وباعدت بينها الأزمان والكتاب عموما ألّف على فترات متباعدة في شكل مقالات [1]، وقد طبع مرتين ، أما المرة الأولى فهي غير مشار إلى سنة طبعها ، وأما المرة الثانية فكانت سنة 1972م.

د– شخصيات إستوقفتني : وتطرق فيه إلى ثمانية من الأعلام هم : الفضيل بن عياض ، عبد الله بن المبارك أبو حامد الغزالي ، جلال الدين الرومي ، بديع الزمان النورسي ، جمال الدين الأفغاني ، مصطفى حسني السباعي ، وروجيه قارودي ــ رحمهم الله جميعا ــ وقد ركز العلامة البوطي نظره على الأبعاد والمناحي الروحية في حياة هؤلاء ، وعبّر عن مدى تأثره بهم ، وعن تلك القوة الروحية التي استمدّها من أقوالهم ومواقفهم ، وقد طبع هذا الكتاب مرتين ، آخرهما طبعة دار الفكر ، بدمشق سنة 1420هـ ، الموافق ل 1999م.

– في مجال المقاصد :

أ– ضوابط المصلحة في الشريعة الإسلامية : وهو عبارة عن أطروحة قدمها لنيل درجة الدكتوراه ، من جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة ، وذلك سنة 1965م/ 1385هـ ، ومدار هذا الكتاب على أبواب ثلاثة ، الأول في علاقة الشريعة الإسلامية بالمصلحة ، وضوابط المصلحة الخمسة ، والثاني في موقف العلماء قديما وحديثا من المصلحة ، والثالث وصل فيه إلى ضرورة العمل بالمصلحة الشرعية وفق ضوابطها المتفق عليها .

ب– من أسرار المنهج الرباني : ومداره على طائفة من المبادئ كالإيمان ، والذكر وأثره في

1– عند إمعان النظر في هذا الكتاب يتبين لنا جليا أنه جملة من المقالات ، كتبها البوطي خلال مراحل متعاقبة ، ودليل ذلك أنه تناول فيه مثلا : " سعيد النورسي " ، وهو بحث كتبه سنة 1961م ، بينما ما كتبه عن مصطفى السباعي كان في الذكرى الثانية لوفاته ، أي سنة 1966م ، وقبل ذلك كتب بحثا تحت عنوان : لماذا لا أكتب في الحب ، وهذا سنة 1956م ، كما تضمّن هذا الكتاب كلمات في رثاء زوجته ، علما أن وفاتها كانت عام 1975م إلخ ... ، وعلى الرغم أن مواضيع الكتاب متفرقة ، ولكن ذلك لم يمنع من تناسقها وجمالها ، لا سيما وأن قارئ الكتاب يحس أن هذه المواضيع يجمعها حكم العقل والوجدان في آن واحد .

تقوية الجانب الروحي ، وكذا الوقوف على بعض أسرار الأحكام الشرعية ، وبعدها في واقع المسلم ، وقد طبع هذا الكتاب بمكتبة الفارابي ، بدمشق ، سنة 1977م.

– في مجال الفقه وأصوله :

أ – محاضرات في الفقه المقارن : وقد استهله بتمهيد بين فيه أهمية دراسة الفقه المقارن ، وأسباب اختلاف العلماء في المسألة الواحدة ، أما محتوى الكتاب فقد تطرق فيه إلى بعض المسائل التي دار حولها الخلاف بين العلماء قديما وحديثا [1]، وفق منهج دقيق ، مفاده بيان صورة المسألة أولا ، ثم عرض أدلة كل مذهب فيها ، ثم مناقشة هذه الإدلة إسنادا ومتنا ، ثم بيان المذهب الذي يميل إليه اعتمادا على قوة دليله ، وقد طبع هذا الكتاب مرات عديدة آخرها طبعة دار الفكر بدمشق ، سنة 2006م .

ب – قضايا فقهية معاصرة : وهي قضايا من نسيج هذا العصر [2] ، كثر حولها الجدل ، ناقشها الشيخ البوطي بأسلوب علمي دقيق ، وأدلة دقيقة ، وقد طبع هذا الكتاب من طرف مكتبة الفارابي ، بدمشق سنة 1991م .

ج– الجهاد في الإسلام : وهو كتاب مداره على حقيقة الجهاد في الإسلام ، فهما وممارسة ،لئلا يخلط بما هو ليس منه ، كالدوائر الإستعمارية ، والقتل بغير وجه حق تحت دعوى الجهاد ، مبينا أنه لا تعارض بينه وبين حق الإنسان في الحرية الممنوحة له شرعا ، وقد طبع هذا الكتاب من طرف دار الفكر بدمشق سنة 1993م .

د– مباحث من الكتاب والسنة : وتطرق فيه إلى العديد من المباحث الأصولية ،هادفا إلى تبسيطها وجعلها في متناول كل متعطش إلى هذا اللون من المعرفة ، وذلك مثل العام والخاص ، والمطلق والمقيد

1– ومن هذه المسائل : – تباعد البلدان وأثره في تحديد اليوم الأول من رمضان ، الطّلاق الثلاث ، العقوبة بأخذ المال ، القضاء بقرائن الأحوال إلخ... .

2– وذلك مثل رعاية المسنين ، زرع الأعضاء ، الصور المستجدة للربا ، الحقوق المعنوية للمرأة ... إلخ .

إلـــخ ... ، مع التمثيل لها من الكتاب والسنة ، وهو كتاب جامعي ، طبعته جامعة دمشق ، ســـنة 1967م .

هـ – البيوع الشائعة وأثر ضوابط المبيع على شرعيتها : وتناول فيه تعريف العقد ، وتعريف البيع ، مع لمحة تاريخية حول البيع ، ثم تطرق موضحا لجملة من أنواع البيوع ، منها بيع السّـــلم ، وعـــقد الإستصناع ، ومسألة بيع أعضاء الإنسان ، وبيع الصرف إلخ ... ، وهو في جملته شرح لمسائل فقهية بأسلوب علمي دقيق ، وبطريقة ميسرة جذابة كعادة كتابات الشيخ ، وقد طبع هذا الكتـــاب طبعتـــه الأولى سنة 2001م ، الموافق ل 1400هـ ، من طرف دار الفكر ، بيروت .

و– إشكالية تجديد أصول الفقه : وهذا الكتاب يحتوي على قسمـــــين ، الأول منهما تطـــرق فيه إشكالية تجديد هذا العلم ، مع محاولة فهمه بعد تأسيسه الأول ... والثاني مداره تعقيبات على ما ورد في القسم الأول ، وقد طبع هذا الكتاب أول ما طبع سنة 2006م ، من طرف دار الفكر بدمشق .

– في مجـــــال القرآن وعلومه :

أ– من روائع القرآن : وتناول فيه جملـــة مـــن العلـــوم المتعلقـــة بـــالقرآن الكـــريم ومباحثـــه ،كنزوله وجمعه وعلم المكي والمدني ، ووجوه الإعجاز إلـــــخ... ، صـــدر هـــذا الكتـــاب في طبعته الأولى وكان تحت عنوان : " أحسن الحـــديث " ، ثم طبـــع ثانيـــة ســـنة 1970م وهـــو يحمل عنوان " من روائع القرآن " من طرف دار الفارابي بدمشق .

ب – لا يأتيه الباطل ، كشف لأباطيل يختلقها الـــبعض ويلصـــقها بكتـــاب الله : ولـــيس أدل على محتواه من عنوانه .

– في مجـــــال السير والتراجم :

أ – فقه السيرة النبوية ، مع موجز من تاريخ الخلافة الراشدة : وهو كتاب كسائر كتب السير ، يتناول فيه حياة النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ من مولده إلى التحاقه بالرفيق الأعلى ، إلا أنه يتميز بأنه أنسب للعصر ، وذلك لوضوحه ومجانبته التعقيد ، كـــما يتميز بمنهجية علمية دقيقة ، فهو يعمد

أولا لعرض القصة كما ثبتت في الصحاح ، وفي كتب السـّنة عموما ، ثم يعلق عليها مستخلصا ما تحويه من عبر وعظات ثانيا ، مستغلا ذلك كله في الإسقاط على واقع الحياة المعاصرة ، وقد طبع هذا الكتاب مرات عديدة ، آخرها طبعة دار الفكر بدمشق ، سنة1991م.

ب- عائشة أم المؤمنين ــ رضي الله عنها ــ : وتناول فيه حياة زوج رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أمنا عائشة ــ رضي الله عنها ــ داحضا ما يثار حولها من شبهات ، وهذا الكتاب لا يزيد عن العشرين صفحة ، طبعته مكتبة الفارابي بدمشق ، سنة 1996م .

- في مجـــــال العقيدة والفكر والفلسفة :

وكتب البوطي في هذه السياقات كثيرة متنوعة ، نذكر منها :

أ- كبرى اليقينيات الكونية ، وجود الخالق ووظيفة المخلوق :وهو كتاب يتناول فيه مختلف المواضيع العقدية ، من إلهيات ونبوات وغيبيات ، منتهيا إلى أن الحاكمية لله وحده ، وإنما وظيفة الإنسان في الأرض هي تنفيذ حكم الله لا غير ،وقد عالج هذه المسائل كلها ــ كذلك ــ وفق منهج علمي عماده الدقة ومبناه الدليل ، وقد طبع هذا الكتاب من طرف دار الفكر بدمشق سنة 1969م .

ب- نقض أوهام المادية الجدلية والتاريخية :وتناول فيه مناقشة المادية الجدلية (الدياليكتيكية) لكل من ماركس وانجلز ، مناقشة علمية عمادها العقل الحر والسليم ، فيذكر الأسس والقوانين التي يقوم عليها المذهب المادي ، ثم يبطلها ويبطل نتائجها ومستلزماتها بالأدلة العلمية الراسخة ، ليخلص إلى الحق الذي ليس ورائه إلا الباطل ،وهو أن الكون من خلق الله المتصف بكامل القدرة والكمال [1]، وقد طبع هذا الكتاب للمرة الأولى بدار الفكر بدمشق سنة 1978م ، ثم طبع مرة ثانية سنة1986م.

1- كما أن البوطي تناول قضية المادية الجدلية في كتابه "كبرى اليقينيات الكونية" ، ومن باب التوسع في الموضوع ، وزيادة إيضاحه أفرد له كتابه " نقض أوهام المادية الجدلية".

ج– مدخل إلى فهم الجذور ، من أنا ؟ ولماذا ؟ وإلى أين ؟ : ويكشف فيه عن رحلة الإنسان في الحياة من البداية إلى النهاية ، بطريقة العقل الحر البعيد عن أي خلفية دينية ، أو انتماء قومي ،ويصل في نهاية المطاف إلى أنه لا سعادة في غير الإسلام ، وأنه ما من مشكلة إلا ويتكفل الإسلام بتقديم حل لها وقد طبع هذا الكتاب ـــ أول ما طبع ـــ سنة 1991م.

د– العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر : وتناول فيه نشأة علم الكلام ، وظهور الفرق الإسلامية ، وأبرز الإتجاهات والمذاهب الفكرية المعاصرة كالوجودية والداروينية إلـــخ ... مبينا هشاشة المستند الذي تقوم عليه هذه الأفكار والمذاهب ، وقوة العقيدة الإسلامية ... ، وقد طبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة 1982م ، من طرف جامعة دمشق .

هـ – من هو سيد القدر في حياة الإنسان ؟ : ويبين فيه مسألة من أهم مسائل العقيدة الإسلامية ،ألا وهي أن الإنسان مملوك لا مالك ، وبذلك فلا بد له من الإقرار بالعبـــودية لله تعالى وحده ، وذلك بمحض إرادته التي خلقها الله فيه ، وقد طبع هذا الكتاب للمرة الأولى سنة 1976م ، من طـــرف مكتبة الفارابي ، بدمشق .

و– هذه مشكلاتهم : والأصل في هذا الكتاب ـــ كما صرح صاحبه ـــ أنه جاء كإجابة عن أسئلة طرحت عليه من قبل أحد الباحثين ، وكانت إجابته عنها مختصرة حسب مقتضى الحاجة في تلك اللحظة ، ثم رأى أنه من الأهمية بمكان أن تبحث تلك المسائل بتفصيل يفي بالغرض[1] ، فتشكّل من ذلك هذا الكتاب ، وقد طبعته دار الفكر بدمشق ، سنة 1990م.

1– في مقدمة هذا الكتاب عرض علينا البوطي الأسئلة التي طرحها عليه الصحفي والباحث " مندوب الديار" ـــ على حد تعبيره ـــ ، كما نقل لنا إجابته عنها المختصرة ، ثم بعد ذلك شرحها وفصّل القول فيها ، ومنها يتشكّل مضمون الكتاب ، ومن هذه المواضيع : مسألة الرق – النظرة الدونية للمرأة ، من أين ؟ وكيف ؟ – المعارضة والقداسة – المثيولوجيا والعلم والقرآن – الجنة والعصمة ـــ ورقة بن نوفل إلـــخ... ، ينظر : البوطي ، هذه مشكلاتهم ، ط1، دمشق : دار الفكر ، 1990م/ 1410هـ .

ز- يغالطونك إذ يقولون : وتضمن هذا الكتاب مغالطات خطيرة وفي موضوعات هامة ، وكشف عنها بأسلوب حواري مقنع [1] ، ورد علمي لا يرفضه عقل ، وقد طبع هذا الكتاب مـــرتين ، مـــن طرف دار الفارابي و دار إقرأ ، الطبعة الأولى سنة 2000م .

ح- تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث : وهو من أول الكتب التي ألفها البوطي ، بل إن هذا الكتاب كما يظهر من محتواه ألفه يوم أن كان مدرسا لمادة التربية الدينية ، في دار المعلمين بدمشق ، وتناول فيه تجربته في التدريس ، وأهمية التربية الدينية ، وأسرار نجاح المدرس ، كما عرّج على عرض لخطط الصراع الفكري الذي يثيره الغرب في العالم الإسلامي إلـــــخ...ويعود تأليف هذا الكتاب إلى سنة 1961م. **ط- مع الناس** : وهو كتاب يجيب فيه عن جملة من الأسئلة التي طرحت عليه من طرف مستويات مختلفة ، في شؤون الدين والحياة .

ك- هذا والدي : وتناول فيه سيرة والده ـــ رحمه الله ـــ ومختلف مراحل حياته ، وأخلاقه وعلمه وورعه ، وقد طبع هذا الكتاب طبعته الأولى بدار الفكر بدمشق ، سنة 1985م.

ل- اللامذهبية أخطر بدعة تهدد الشريعة الإسلامية : وبين فيه وجوب التمذهب بمذهب من المذاهب الإسلامية التي أجمع المسلمون على صحتها ، وذلك بالنسبة لمن لم يبلغ درجة الإجتهاد ، على خلاف من بلغ هذه الدرجة فإن حكمه الإجتهاد وترك التقليد ، وقد طبع هذا الكتاب المرة الأولى سنة 1970م ، كما أشار إلى ذلك صاحبه في مقدمة الطبعة الأولى ، وطبع ثانية ســـنة 1980م .

هذا إضافة إلى كم هائل من الكتب خلفه البوطي ـــ رحمه الله ـــ وهي في جملتها تعالج مختلف قضايا الدين والحياة ، ونذكر منها :

1- ومن أهثلة هذه المغالطات : العلمانية هي الحل – القرآن يغني عن السنة – مجالس الذكر تورط في البدعة – رسالة محمد صلى الله عليه وسلم إنما كانت ثورة عربية إلـــــخ ...

- هذه مشكلاتنا .

- هكذا فلندع إلى الإسلام .

- إلى كل فتاة تؤمن بالله .

- يسألـــونك .

- باكورة أعمالي الفكرية .

- حرية الإنسان في ظل عبوديته لله .

- الإنسان مسير أم مخير .

- الإسلام ملاذ كل المجتمعات البشرية .

- الإسلام والعصر .

- الإسلام والغرب .

- الإسلام ومشكلات الشباب .

- من المسؤول عن تخلف المسلمين .

- المرأة بين طغيان النظام الغربي ولطائف التشريع الرباني .

- قضايا ساخنة .

إلـــخ ...

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

2- خصائص آثاره العلمية :

يمكننا الوقوف على جملة من الخصائص وآثار الشيخ البوطي ، أهمها :

- **الموسوعية** : فقد جاءت آثاره ـــ رحمة الله عليه ـــ شاملة لمختلف جوانب المعرفة الإنسانية والإسلامية بصورة خاصة ،حتى إنه يمكن القول إنه اخترق جدار العديد من التخصصات ،وأخذ منها جميعا بحظ وافر ، فهو يناقش الفلسفة المادية والمثالية والوجودية مناقشة الفيلسوف البارع ، ويرد عليها كاشفا عوارها رد المتخصص المتبحر ، ثم يقدم البديل من الإسلام تقديما تقنع به العقول ، وتطمئن إليه القلوب ، كما نجده يناقش أمهات المسائل الفقهية مناقشة الفقيه الأصولي السابر لغورها ، كما نجده يناقش كبار الأعلام من أمثال ابن تيمية وابن القيم دون تهيب ، جاعلا العبرة بقوة الدليل لا بشخصية المستدل [1] ، كما نجده يصوغ العبارات وفق بناء هندسي جميل وممتع ، بل كثيرا ما يشبع خيال القارئ ويجعله كلما قرأ كرر السؤال نفسه ، هل من مزيد ؟ كيف وهو أمام أديب متملك لناصية البيان [2] ، ومع هذا وذاك نجده مفكر واسع الأفق ، ملم بشؤون العصر وقضايا الواقع .

- **التلقائية والوضوح** : فكتاباته ـــ رحمة الله عليه ـــ جاءت مبنية على وضوح الفكرة ومجانبة التعقيد ، وعلى البساطة والبعد عن التكلف ، بحيث لا يجد القارئ ـــ ولو قليل

1- ومن أمثلة ذلك مناقشته للمادية الجدلية وأربابها في كتابه " نقض أوهام المادية الجدلية " ، ومناقشته للإمام ابن تيمية في مسألة طلاق الثلاث ، (ينظر البوطي : محاضرات في الفقه المقارن ، ط2 ، دمشق : دار الفكر ، 1981م ، ص 99 وما بعدها)، وكذا مناقشته لابن تيمية نفسه في مسائل التصوف كالفناء ونحو ذلك ، وكذا مسائل في علم الكلام والفلسفة مثل القدم النوعي للعالم ونحو ذلك ، ينظر البوطي ، السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي ، ط1 ، دمشق : دار الفكر ، 1988م ، ص 203 وما بعدها

2- ومن أمثلة ذلك ترجمته لتلك الملحمة العاطفية العذبة (ممو زين) ، حيث ترجمها إلى اللغة العربية ، وكذا كتابه " من الفكر والقلب" ، وغير ذلك كثير .

البضـــاعة ـــ في التعامل معها أي مشقة أو عناء ، ومع ذلك يصـــوغها صـــياغة دقيقـــة وكأنهـــا بنيان مرصوص يشد بعضه بعضا ، ويســـكب عليها من جمال السبك مـــا يبعـــث فيهـــا روعـــة التصـــوير البياني ، وكأنه لا يقصد بكتاباته طائفة دون أخرى وإنما قصـــد إيصـــال رســـالة الحـــق إلى المسلمين كافة على تفاوتهم في البضاعة

– **الدقة في انتقاء العناوين** : فكانت عناوين مؤلفاته معبرة عـــن مضـــمونها ومحتواهـــا بكـــل عناية ودقة مثيرة تستميل المطلع عليها إلى الإنكباب على المحتوى الكـــامن تحتـــها ، فهـــو أحيانـــا يستل هذه العناوين من الوحي ، وذلك مثل : (يســـألونك) ، (لا يأتيـــه الباطـــل) ، وأحيانـــا يمنحها من التأنق والجمال ما يجعلها جذابة شهية ، وذلـــك مثـــل : (مـــن الفكـــر والقلـــب) ، (من روائع القرآن) ، (يغالطونك إذ يقولون) ، وأحيانا يغلب عليهـــا الطـــابع العلمـــي المجـــرد بما يحويه من دقة ، بحيث لو حذفنا من العنوان كلمة غاب المعنى واختل الـــنظم ، وذلـــك مثـــل: (الإسلام والعصر) ، (نقض أوهام المادية الجدلية) إلـــخ ... .

– **التجديد والإبتكار** : أي إن مؤلفاته صـــرحا جديـــدا ارتســـمت فيـــه ملامـــح ومعـــاني الإسلام ، فلا هو ذاك المنكب على الماضي المستغرق فيمـــا يعـــد في دنيـــا اليـــوم أشـــباحا ، ولا هو ذاك الذي يبني من غـــير تأسيس ، بل هو ذاك الذي يغتـــرف مـــن يم التـــراث مـــا يمنحـــه الأصالة ، ويمنـــحه من روح الإبتكار ما يجعل الحاجة إليـــه أكثـــر ،ومـــن هـــذا التـــزاوج تـــأتي أفكاره وليدا جديدا يأبى إلا أن يكون ابن العصر ،من غير تعال علـــى الثوابـــت ولا تنصـــل مـــن القيم ، وبصورة أوضح يمكننا القول إنه حلقة وصـــل بـــين الماضـــي والحاضـــر ، فكـــثيرة هـــي المواضيع والمسائل التي ظلت مقبورة في قبور الغموض والتعقيـــد ، ولا يمتلـــك التنقيـــب عنـــها إلا لمن رفعه الله إلى أعلى منازل العلم ، ولكنها في مثل كتابات البـــوطي تمســـي مفهومـــة لا غبـــار عليها ، بل إنها في كتب المتقدمين [1] أشبه ما تكون بالطلاســـم والألغـــاز ، ممـــا يقلـــل نفعهـــا ، فلولا جهود أمثاله من العلماء لبقيت مطورة إلى أجل غير معلوم .

[1]ـــ ولا سيما من ذلك قضايا التصوف ومسائله .

– **الإحالة** : المطلع على مؤلفات البوطي لا يعجزه أن يدرك تكرر مواطن الإحالة فيها ، وهذا لون من إحقاق الحق وإبطال الباطل ، ووجه من وجوه الأمانة في البحث ، ولكننا في أحايين كثيرة ،وفي ثنايا إحالاته نقف على أنه يحيلنا على كتبه هو قاصدا بذلك زيادة التوضيح والإيضاح ، مما يجعلنا نتعرف على جملة من كتبه بمجرد قراءة بعضها [1] .

3- منهجه في البحث والتأليف :

للبوطي ـــ رحمة الله عليه ـــ منهج علمي محكم ودقيق في البحث والتأليف ، يعتمد ويتكئ على ما يلي :

– **المناقشة والتحليل** : فنجده أولا يوضح الفكرة التي يود مناقشتها ، حتى تغدو جلية لا غموض فيها ولا لبس ، ثم يعمد إلى مناقشتها مناقشة علمية دقيقة حتى يستبين بياضها من سوادها وبأسلوب الدارس المتخصص الذي لا يعرف الحشو إليه سبيلا ، وهذا واضح في شتى ضروب المعرفة التي يقبل عليها ، فيمكن القول إنه عقل نفسه بقيد القاعدة العلمية المعروفة " الحكم على الشيء فرع عن تصوره " .

– **التأصيل والتدليل** : أي الإعتماد على الشواهد المعضدة ، والإستدلال بها في موضعها ، وفق القواعد المقررة أصوليا ، وهذا منهج واضح كذلك في كل مؤلفاته على تعدد مجالاتها ، فهو يستدل أولا من القرآن الكريم ، ثم من السنة النبوية ، ثم يعمد إلى مختلف الأدلة كاشفا عن وجه الدليل فيها ، ثم ـــ إذا اقتضت طبيعة المسألة ـــ يعزز بالدليل العقلي القوي الذي يغنيك عن طلب المزيد ، بل إنه في ذلك يعمل بالقاعدة التي اصطلح

1– ومن ذلك مثلا نجده في كتابه "من الفكر والقلب " وتحت عنوان "أدباء ولكن" يقول :(ولو استطاعوا لألبسوه هو الآخر قبّعة وحلة أوربية ، وشدوا عنقه برباط إفرنجي) ، يحيلنا إلى أن العبارة قد ذكرها في كتابه "في سبيل الله والحق" ، وفي الكتاب نفسه وتحت عنوان :"المصلحة المرسلةلا أثر لها في النصوص تخصيصا ولا تفسيرا " ، نجده يحيلنا إلى تفصيلها في كتابه " المصلحة المرسلة " ومثل ذلك كثير في مؤلفاته .

عليها علماء المسلمين دون غيرهم ، والتي شرحها في كتـــــابه : "كـــبرى اليقينيـــات الكونيـــة"، وهي قاعدة : " إذا كنت ناقلا فالصحة ، وإذا كنت مدعيا فالدليل " ، كمـــا نجـــده ـــــ إضـــافة إلى اعتماده على النقل والعقل ـــ يحيلنا إلى كلام كبار الأعلام وأعمدة العلـــم ،مـــن أمثـــال إبـــن حجر العسقلاني ، والذهبي ، وابن عساكر الدمشـــقي ، والإمـــام الشـــافعي ، وحجـــة الإســـلام أبو حامد الغزالي ، وابن عربي ، وابن عطاء الله ، وابن عجـــــيبة ، وغيرهـــم كـــثير ، وهـــذا إن دل على شيء فإنما يدل على سعة اطلاعه على المصادر العلمية ، وفي شتى الألوان المعرفية .

– **جمال العبارة** : فهو فيما يكتب ويقول جميل العبـــارة ، دقيـــق في تصـــوير المعـــنى ، يعمـــد إلى التصوير الخيالي فيقرب المعاني ، فيثبت ما يريد إثباته ، ويبطل ما يريـــد إبطالـــه ، وهـــذا مـــا منح مؤلفاته تأثيرا يسري في القلوب كما يسري التيـــار الكهربـــائي في أســـلاكه ، حـــتى إنـــه يســـتولي على مجامع القلب والعقل معا [1]، وهذا في مؤلفاته هو الطابع الغالب .

1– ومن أمثلة تعليقه على ما ينبغي أن يهتم به المسلمون من كبريات القضايا التي يتوقف عليها مصيرهم ، ويتحقق بها وجـــودهم ، والتي رغم أهميتها إلا أنهم يتغافلون عنها ، ليشغلوا أنفسهم ويملؤا أوقاتهم بسفاسف الأمور وبدهيات المسائل ، لا لشيء إلا لإثارة قضايا جدلية عقيمة ومميتة للوقت ، يقول : ((لطالما وددت أن لا أشغل نفسي وقلمي عن هذا الأمر الخطير ـــ أي معالجة القضايا الأهم ـــ بصغريات الأمور وبدهيات المسائل ، ولكن ماذا تفعل بمن جاء يجر إليك الكثير من هذه البديهيات بعد أن قلبها إلى قضايا جدلية تحتمل البحث والدرس ، ثم فرضها فرضا ووضعها عقبة كبرى في سبيل معالجة الأمر الخطير الذي أنت بصدده ...ماذا تفعل إذا انهمكت في نقل إنسان فاجأه النزيف ، إلى أقرب مركز إسعاف لإنقاذ حياته ،ثم ظهر لك من تحت الأرض من أغلق في وجهك الطريق ، واختطف منك هذا الإنسان ، ثم احتمله ساعيا إلى أقرب حـــمام لينظف جسمه أولا ، وليضعه بين يدي مشروع جميل ، وهل لك من سبيل إلى إنقاذ حياة هذا المصـــاب إلا بأن تحذره من الإنصـــياع لهذا المجنون ، ثم تبعـــده عنه وتنطلق به كالبرق إلى الطبيب)) ، ينظر البوطي ، اللامذهبية (مصدر سابق) ، ص 23. ومن أدبياته وإنشائه وخياله كذلك قوله بصدد الحديث عن فائدة دراسة الفقه المقارن ، يقول : ((ودراسة الفقه المقارن هي السبيل الوحيد أيضا إلى أن يلتزم الجاهل حده ولا يتعدى طوره ، فيزعم أن في مقدوره أن ينسخ علم الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما بعلمه ، فإن هذا الجاهل إذا وقف على كيفية استنباط الأئمة للمسألة من مصادرها ، ولمس دقة النظر والبحث والتحقيق فيها ، وشاهد كيفية المناقشة وإيراد الأدلة وردها والكشف عن دخائلها، صحا إلى جهله وغروره وأقلع عن تلك العصي التي كان يأبى إلا أن يركبها ، ثم يركضها من تحته ليسابق بها الخيول)) ، ينظر : البوطي ، محاضرات في الفقه المقارن (مصدر سابق) ، ص 6. ـــ وعلى كل فالأمثلة في هذا كثيرة وكثيرة .

وعليه فإن دل هذا على شيء فإنما هو دال علـــى امـــتلاك الشـــيخ البـــوطي لثـــروة لغويـــة لا يستهان بها ، ولمعرفة تؤهله إلى محادثة الكبار ومزاحمة الأعـــلام ، وهـــو مـــا ســـنقف عليـــه في الفصل الموالي بالتفصيل ـــ إن شاء الله ـــ ، ونتعرض من خلاله لمسألة المعرفة عنده .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني :

نظرية المعرفة عند البوطي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1- المبحث الأول : المعرفة العقلية عند البوطي

- حقيقة العقل والمعرفة العقلية :

الإشكالات المطروحة في هذا السياق مدارها على مدى إمكانية العقل إنتاج معرفة حقيقية بالإنسان ، وبالطبيعة ، وبما وراء الطبيعة ، وهذا الإشكال قديم قدم عملية التفلسف نفسها .

ولإيضاح الصورة إرتأينا أن نعطي الملامح العامة لهذا اللون من المعرفة ، ولو بصورة موجزة ، ثم نقدم العقل كما يراه الشيخ البوطي .

إن بعض الفلاسفة ــ وهم العقليون ــ يثقون في قدرة العقل على بلوغ اليقين ، وبلوغ المعرفة الطبيعية والإنسانية على حد سواء ، وذلك اعتمادا على إمكاناته الذاتية ، ودونما حاجة إلى أي تجربة حسية ، وذلك ــ أيضا ــ لأن العقل يحتوي على مبادئ فطرية أو قبلية سابقة على التجربة ، وهذا مذهب أفلاطون في عالم المثل المعروف[1] ، وأرسطو ومن بعدهم الفيلسوف الألماني لايبنتز [2]، وهو نفسه ما يراه ديكارت من أن العقل يحتوي على مبادئ وأفكار فطرية منذ البداية ، وما تفاوت الناس في القدرات العقلية إلا نتيجة لتفاوتهم في استخدام العقل .

وما نلحظه على هذه التوجهات هو مغالاتها في العقل من جهة ، وإنشاء فجوة لا حدود لها بين العقل والحواس من جهة أخرى ، مع نسف الحس من دنيا المعرفة .

1- عالم المثل هو عالم عقلي ، إذ العقل ــ عنده ــ هومستودع الحقائق المطلقة التي يدركها عن طريق التأمل ، ثم إن الوصول إلى الحقيقة يتطلب ــ عنده ــ تجاوز عالم الحس ، الذي هو عالم أشباه الحقائق .

2- بالنسبة لأرسطو فقد نحى منحى أفلاطون في مبادئه العقلية الثلاثة ، وهي : مبدأ الهوية ، مبدأ عدم التناقض ، ومبدأ الثالث المرفوع وأضاف لها الفيلسوف ليبنتز مبدأ رابعا هو : مبدأ السبب الكافي .

ولكن التوجه الإسلامي هو التوجه الوحيد الذي تظهر على يديه الحقيقة ناصعة ، والشيخ البوطي

كأي عالم مسلم ،لا يهمل العقل ولا يغفله ، فهو مصدر للمعرفة ، إلى جانب كل من الحس والذوق ، وبذلك فهو يجمع بين هذه المصادر الثلاثة للمعرفة ، ويصل بينها ، ويرى تكاملها ، على خلاف المناهج الغربية التي تفصل بينها ، فأصحاب العقل يتنكرون للحس والعكس ، وهكذا تشكلت القطيعة التامة بين هذه المصادر .

فالعقل ــ عند البوطي ــ هو ملكة كاشفة يتوصل بها إلى إدراك الحقائق بطريقة آلية ، فهو يدرك أن الواحد إذا انضاف إليه مثله تشكل منهما الإثنان [1]،كما أن الحقائق المعنوية كمعرفة الله تعالى وصفاته ومعرفة النهاية والمآل ، إنما يتم إدراكها بالعقل ، مما يجعلنا نفهم أن العقل هو ذلك النور الذي ينبعث من الروح ويشرق على الدماغ ، وبه يتم إدراك الحقائق [2].

ولإيضاح هذه الفكرة نقول : مما هو معلوم من نصوص الوحي الكثيرة أن الله تعالى خلق الإنسان مزدوج التركيبة ، طين وروح ، ومادام أن الروح سر من أمر الله ، فما يشرق منها على الدماغ من نور فهو ما يسمى بالعقل ،كما أن ما يشرق منها على تلك المضغة التي موضعها الصدر يسمى القلب وبالتالي فإن المعرفة العقلية هي التي تكون من اختصاص العقل ، فترد عليه من جهة التعلم والإصغاء والدرس ، وتكون مناسبة له ، وسنقف على ذلك ــ إن شاء الله ــ بشكل أوضح فيما سيأتي .

إذا فقد تبين أن المعرفة التي يدركها العقل يشترط فيها أن تكون من اختصاصه ، فيكون انسجام بين طبيعة تلك المعرفة وبين العقل المدرك لها ، يقول البوطي : ((ولكل نوع من

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية شرح وتحليل ، ط6، دمشق : دار الفكر ، 2011م / 1432هـ ، المجلد 1، ص 184.

[2]ـ المصدر نفسه ، المجلد 4، ص 24.

الدعاوى نوع من الأدلة العلمية يناسبها لا يستبدل به غيره ، ... والدعاوى المتعلقة بالمجردات كالأرقام والنفس والمنطق لا يقبل معها إلا براهينها القانونية المسلّمة ، وهكذا لا تصبح الدعوى حقيقة علمية ثابتة إلا بعد أن يقترن بها دليلها الذي يناسبها .))[1] ، وهذا ما يجعلنا نستفسر عن المجالات التي يخول له اقتحام غمارها ، ووظيفته في هذه المجالات .

2- وظائف العقل ومجالات المعرفة العقلية :

يقول إبن عطاء الله السكندري : ((النور له الكشف ، والبصيرة لها الحكم ، والقلب له الإقبال والإدبار)) ، ومن هذا يبين البوطي إن العقل سر يتجه إلى الدماغ ، ويشرق فيه، فتتحقق تبعا لذلك لذلك وظيفته التي هي **الإدراك** [2] ،وهو ما عبّر عنه إبن عطاء الله بالنور الذي له الكشف ، وفي هذا السياق يفند البوطي مذهب الطبيعيين ، القائل إن العقل هو وظيفة الدماغ .

وبتعبير أدق فالإدراك الذي هو وظيفة العقل ــ كما تبين ــ هو سر رباني يشرق على الدماغ ، وبهذا النور الرباني تنكشف الحقائق ، وتتميز عما يلتبس بها من الزيف والباطل .

وكما سبق القول ، فإن البوطي يوصل العقل بالقلب ، ويزاوج بينهما ، في إطار وظيفة تكاملية ، تهدف إلى بلوغ الحقيقة ، إضافة إلى مصدر ثالث هو البصيرة ،وهو المراد بقوله : ((البصيرة ليست العقل ذاته ، بل هي الثمرة التي يجنيها الإنسان من عقله ، كالعقيدة والعبرة والحجة ...والترتيب بين النور الرباني الكاشف والبصيرة الحاكمة يقوم على نهج منطقي ،فنور العقل يكشف لصاحبه الحقائق متميزة عما قد يلتبس بها من الباطل والزيف، فإذا تجلت له وظهرت أمامه بعيدة عن الإلتباس وأسبابه جاء دور البصيرة ليعتمد عليها

---

[1]- البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية ، دط ، دمشق : دار الفكر ، 1997م ، ص 34.

[2]- البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، المجلد 2، ص 83.

صاحبها في اتخاذ القرار ...ثم يأتي بعد هـذا دور القلـب))[1] ،وواضـح أن مقصـوده بثمـرة العقل التي هي البصيرة ، هي المعرفة التي يبلغها ، بعد البحـث والنظـر ، وهـذا مـا يـذهب إليه الصوفي الشهير ابن عربي إذ يقول : ((وعلم العقل هو كل علـم يحصـل لـك ضـرورة أو عقيب نظر في دليل ، بشرط العثور على وجه ذلك الـدليل وشـبهه مـن جنسـه في عـالم الفكر ، الذي يجمع ويختص بذلك الفن من العلوم .))[2] ، وعليه فإن مجمـل القـول مـن كـلام البوطي ، أنه يحدد وظيفة العقل في الإدراك والعلـم والقـدرة علـى تحليـل الأشـياء ، وسـبر أغوارها ، وهو ملكة ربانية يتمكن الإنسان بواسطتها مـن تسـخير هـذا الكـون ، والسـيطرة على مظاهره [3] .

ويرى البوطي أن العقل من شأنه أن يصل بنا إلى معرفة يقينية ، وذلـك إن تهيـأ لـه المنـهج المنطقي الذي ينسجم مع طبيعة المسألة التي يراد الوصول إليها[4] ، ومـن الخلـط إقحامـه فيمـا لا يتفق مع طبيعته من المسائل ، ثم الحكم عليه بالفشل .

وبهذا يكون قد تبين بما لا يدع مجالا للغموض ، أن للعقل مجاله الـذي لا يتعـداه ، وموطنـه الذي لا يعدوه ، والمتمثل في القضايا العقلية المنطقية ، الخارجة عـن مجـال الحـس ، وذلـك كغيوب الماضي السحيق ، أو المستقبل البعيـد ،أو الموجـودات الخفيـة عـن الحـس ،فمنـهج الوصول إليها البرهان العقلي المتمثل في قانون الـتلازم ، وقـانون الحصـر والإسـقاط [5] إلخ... ،

---

[1]– البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) مجلد 2 ، ص 84.

[2]– محيي الدين بن عربي ، الفتوحات المكية ، دط ، دمشق : دار الفكر ، دت ، المجلد 1 ، ج1 ، 31.

[3]– البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية (مصدر سابق) ، ص 65.

[4]– البوطي ، هذه مشكلاتهم ، ط1، دمشق : دار الفكر ، 1990م ، ص 122.

5 – المقصود بذلك فرض أحد الاحتمالات بشأن مسألة غيبية معينة ، ثم نعيـن الآثار والمستلزمات العقلية والطبيـعية المقترنة بهذا الاحتمال فإن ظهرت الآثار بعد البحث فالفرضية صحيحة ، ويصبح الاحتمال حقيقة علمية ، والعكس ، عند غياب الآثار ، بحيث نطرح الفرضية الأولى ثم نعمد إلى الثانية ، وهكذا ، ولذلك سمي الحصر والإسقاط ، ينظر البوطي ، المصدر نفسه ، ص 123.

وهنا فالبوطي كمسلم يقرن ذلك بالمنهج الشرعي المعتمد في إدراك مالا يدرك ، ألا وهو الوحي المتمثل في الخبر الصادق .

ولكن السؤال الذي يمكن أن يطرح نفسه بين يدي الحديث عن العقل ، إنما هو عن الحاجة إلى إقحام العقل في ما الأصل فيه أنه لا يتأتى إلا من جهة الخبر الصادق ؟

وفي اعتقادي أن الشيخ البوطي لا يخص بمثل كتاباته في هذا السياق المسلمين ، فالمنهج العقلي يوضع لمن بحث عنه بعد تشكيك فيما جاء به الخبر الصادق ، أو تنكر وجحود ، وحينها يكون المنهج العقلي دليلا على ما ورد به الخبر ،ثم فيما يبدو أن الحاجة إلى المنهج العقلي تغلب فيما سكت عنه الخبر الصحيح ، وإلا فمن أين لنا إدراك أهرامات مصر ، ومثلث برمودا ،ونحو ذلك مما كان في حكم المسكوت عنه .

ولطالما أننا بصدد الحديث عن الجانب الروحي ، لا بد أن نعلم أن الشيخ البوطي يرى أن المعرفة العقلية إذا ثبتت عند باحث ، فذلك أمر صائب وقويم ، لكنه لا يعني بلوغه شاطئ الأمان ،بحيث إن تلك هي الحقيقة التي ينبغي له الوقوف عندها فلا يبرحها ، بل إذا كانت تلك هي النهاية بالنسبة للفلاسفة العقليين ، فهي البداية بالنسبة للبوطي كباحث مسلم ، والباحث حينئذ ((لا يحبس عقله عند مقدمات الحجج والبراهين ، بل عليه إذا استعملها وفرغ منها أن يتجاوزها إلى درجة الشهود.[1])) ، أي يجعل من شهوده برهانا على ما أوصله إليه العقل ، وهو نفسه ما يذهب إليه ابن عربي ، ويسمي من يحبسون أنفسهم في سجن العقل الذين يتقلبون في الأدلة [2] ، ومن الوضوح بمكان أن السير على ضوء العقل وحده سبيل غير مأمون العثرات ، لأنه كثيرا ما تديره الأهواء ، وتنبت فيه الخرافات ، وينال منه التقليد .

---

[1]- البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، المجلد 1 ، ص 211.

[2]- ابن عربي ، الفتوحات (مرجع سابق) ، ج1، ص 483.

3- تحرير العقل وتنقيته :

لا خلاف في أن العقل نعمة إلهية كبرى ، تميز بها الإنسان عن سائر الخليقة ، ونال بها التكريم الإلهي ، وهو مقصد في الدين ضروري ، أوجب الإسلام حفظه بتحريم كل مضاره ، كما ألزم بما ينميه ويفجر ملكة الإبداع فيه ، ولهذا اهتم العلماء بشأنه كثيرا ، وبسطوا القول فيه مطوّلا ، وعملوا جاهدين على تحريره من أسر الخرافات والأهواء وكل ما من شأنه أن يخرجه عن وظيفته التي خلقه الله لأجلها .

ولقد كتب البوطي ـــ رحمه الله ـــ في العديد من المواضع في هذا السياق ، وتفصيل القول في ذلك كما يلي :

-الخرافات : ومنها ما ذاع له صيت في مختلف الأقطار ، مما يعرف بمعراج ابن عباس ـــ رضي الله عنه ـــ وهي قصة غاية في التحريف[1] ، وعلى الرغم من سذاجتها إلا أنها تموقعت في بعض العقول ، والأغرب أنها شكّلت جناية على الدين الذي يحتوي مثل هذا الزيف العظيم ، والبوطي بما يمتلك من ذكاء خارق تمكّن من رد هذا الزيف بسؤال بسيط عميق على من جاء يحمل له هذه الخرافة ، قال له: ولكن من أين لك هذا المخطط الجغرافي، والتحليل الكيميائي لأمر السماوات والأرض ؟ وأقنع الشاب الذي شكك في الدين كله واتهمه أنه موطن الخرافات ، أقنعه بأن الدين إنما يؤخذ من أهله أولا،ثم إن القرآن الكريم ـــ وهو أول مصادر الدين ـــ يمدك بالحقيقة فيقول ((***ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين***[2] .)) ، كما أن أحاديث المعراج في الصحاح لم تعرف مثل هذا اللغو الذي لا طائل من ورائه .

1- ومفاد هذه القصة أن ابن عباس أعرج به ، وأخبرهم أن السماء الأولى من نحاس ، والثانية من حديد ، والثالثة من ذهب إلخ ... كما أخبرهم أن القمر معلق بالسماء الرابعة ، والشمس معلقة بالخامسة إلخ ... ، ينظر البوطي ، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث ، دط ، الجزائر : دار الهدى ، دت ، ص 112.

2- سورة الملك ، الآية 5.

كذلك من الخرافات التي ذكرها البوطي ، وعايشها ووقع عليها بصره ، يوم أن كان مدرسا في التعليم الثانوي ، وقدّم إليه بعض طلابه منشورا بتوقيع الشيخ أحمد خادم الحرمين ، ويتضمن نصح المسلمين بالعودة إلى دينهم والتمسك به ، فإن أجل الساعة قريب، ولا يفصلنا عنه غير ثلاثين سنة [1] وهي دعوى ساذجة كذلك ، ولكن صدّق بها من صدّق ، لا لشيء إلا لضعف الرصيد الشرعي لدى هؤلاء ، وإلا فإن أبسط الناس يعلم أن الله تعالى قال : ((**وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٧ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ۝٤٨**))[2] ، وكثيرة هي نصوص الوحي التي تحمل دلالة قاطعة على أن العلم بمثل هذه الأمور إنما هو لله وحده ، وأن أي خبط للعقل فيها إنما هو من قبيل الأوهام والخرافات .

– **التقليد** : ويبين البوطي أن أمر الدين قائم في كل الأحكام والمبادئ على العقل والمنطق السليمين ، وذلك لأن الدين في أصله جاء ليحرر الإنسان من التقليد ، والإتباع الأعمى بمنأى عن التفكير الحر ، وبالتالي فليس في هذا الدين شيء اسمه التقاليد الإسلامية[3]، وهذه الحقيقة إنما يستقيها البوطي من القرآن الكريم ، وهو أول كتاب شن ثورة على اغتيال العقل ، وفي ذلك يقول الله تعالى:((**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ۝٣٦**)[4] ، ويقول: ((**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ۝٣٦**))[5] ، وكثيرة هي الآيات التي تدل على أن الإنسان لا يحق له أن يتبنى عقيدة ولا فكرة إلا إن جاءته ((عن

---

[1]– البوطي ، المصدر نفسه ، ص 116.

[2]– سورة يس عليها السلام ، الآية 48–49.

[3]– البوطي ، فقه السيرة ، ط8 ، الجزائر : دار الشهاب ، دت ، ص 102.

[4]– سورة الإسراء ، الآية 36.

[5]– سورة يونس ، الآية 36.

طريق ما يثبته العقل الصافي من الدلائل اليقينية التي من شأنها أن تكشف عن حقيقة المطلوب))[1] .

–**الأوهام** : وهي من أكبر ما يصرف العقل عن آداء وظيفته المتمثلة في الفكر ، بل إنه يصبح مكبلا في قيود الأهواء والعقد و العصبية ،فتقوده الأوهام إلى تقديس الشخص والكيان بدلا عن الأفكار ، وتقوده العقد إلى العصبية الباطلة إلى الأسرة أو الجهة أو القبيلة، فيغدو ـــ في وهمه ـــ الحق لا ينبع إلا من واقعه ، بدلا من أن يكون الحق وحده هو المقياس في تقويم الأشخاص وتقديرهم[2] .

[1]– البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية (مصدر سابق) ، ص 32.

[2]– البوطي ، باطن الإثم (مصدر سابق) ، ص 32.

– المبحث الثاني : المعرفة الحسية عند البوطي .

1 – طبيعة المعرفة الحسية عند الفلاسفة :

إن الغرض من بيان حقيقة وطبيعة المعرفة الحسية عند الفلاسفة ، إنما هو للكشف عن هشاشة المناهج الغربية ، ولا سيما بين طائفة من روادها الذين يزعمون أن الحقيقة لا تتأتى إلا بعد إقامة التجربة الحسية عليها ، وأن ما لم يكن كذلك فلا شأن لهم به ، لأنه ـــ على حد زعمهم ـــ لا صلة له بالعلم أصلا ، وبذلك نجدهم يشككون في إمكانية وجود الحقيقة ، ويقرون بعجز العقل ، وعدم قدرته على بلوغ أية معرفة صحيحة متعلقة بالأشياء والظواهر ، ولذلك سمي أصحاب هذا الاتجاه بالفلاسفة الشكاك ، أو أصحاب الشك المذهبي[1] .

ولقد ظهرت الإرهاصات الأولى لهذا المذهب في الفلسفة اليونانية ، مع الفلاسفة السفسطائيين ، وعلى رأسهم جورجياس (480 -375 ق م)[2] ، وبروتاغوراس (480- 410ق م)[3] ثم تطور هذا المذهب مع الفيلسوف (بيرون)[4] ، و (سكتوس أمريكوس) ، وهؤلاء وأولئك يتفقون على التنكر لوجود أفكار فطرية في العقل ، كما يتنكرون لقدرة العقل على إنتاج معرفة دون حاجة إلى التجربة الحسية ، وبالتالي فالحواس هي مصدر كل ما يحصل عليه العقل من أفكار ، مما يفضي بنا إلى القول بأن العقل

1– يسمون أصحاب الشك المذهبي خلافا لأصحاب الشك المنهجي ، والذين يعتمدون على الشك كمرحلة أولية من أجل بلوغ الحقيقة واليقين ، أما أصحاب الشك المذهبي فالشك عندهم مذهب ، أي غاية ونتيجة نهائية ، ينظر الدكتور إبراهيم محمد تركي ، مقدمة في فلسفة المعرفة ، دط ، مصر : دار الكتب القانونية ، 2012 ، ص 35 وما بعدها .

2– للتعريف به ينظر جورج طرابيشي ، معجم الفلاسفة ، ط3 ، بيروت : دار الطليعة ، دت ، ص 105.

3– المرجع نفسه ، ص 170، وينظر فيصل عباس ، موسوعة الفلاسفة ، ط1 ، بيروت : دار الفكر 1996م ، ص 27 .

4– بيرون (365 – 275ق م) ، وأصله رساما ، وفلسفته هي فلسفة عملية في نظرتها العامة ، ويرى أن في إنكار المعرفة الطريق إلى السعادة و الهروب من كوارث الحياة ، فيصل عباس ، المرجع السابق ، ص42.

مكتسب لا فطري ، ومحدود لا مطلق ،وهو نفسه ما يذهب إليه دافيد هيوم ،من أن كل معرفة إنما مردها إلى الخبرة الحسية ، أو الانطباعات الحسية ، وما سوى الإطار الحسي فهو زيف لا يعتد به .

ولقد ناقش البوطي هذه المسائل مناقشة الجسور المقدام ، وأبان عن اللوثة الفكرية الكامنة في عقول هؤلاء [1] ، ذلك أنه إذا كان العلم لا شأن له إلا بالبحث في الموجودات أمامه كما يرون ، فمن أين لهم بمثل نظرية الصدفة ، والتسلسل المادي ،والنشوء والإرتقاء ونحو ذلك مما يسمونه معرفة، وكيف لهم أن يثبتوا لنا صحتها ويقيموا لنا منهجا علميا عماده المشاهدة الحسية والتجربة ،ويذهب البوطي إلى أن توهم الباحث أنه إنما يبحث في الحقائق العلمية بطرائقها التجريبية ، إنما لخلطه بين كل من دليل التجربة ودليل الإستنتاج[2] ، وإلا فأي تجربة أخضع لها التسلسل المادي ، أو النشوء والإرتقاء ، ونحو ذلك ، وهل كان حاضرا لحدوثها فأدركها بالحواس ؟ ، ومعلوم أن كل ذلك إستنتاج من آثار وفرضيات تاريخية لم يرها هذا الباحث ، ولا حيلة له في وضعها تحت مخبر التجريب ، ولذلك يشهر البوطي سلاح النقد في وجه هذه المزاعم قائلا : ((وهكذا نجد أننا مضطرون إلى تسفيه هذه الفرضيات ، بالسلاح العلمي ذاته الذي يشهره ذلك المتنطع على الدين إذ يقول : إننا نبحث في العلم ولا شأن لنا بما يقرره الدين [3])) ، وذلك بصدد الرد على نفر من

1- نقل البوطي عن الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس قوله : ((إن كثيرا من المعتقدات يكفي في السبيل إليها مجرد الرغبة في الحيطة والحذر ، فالمسائل الغيبية الدينية لا نملك البرهان العلمي التجريبي عليها ، ولكنا في الوقت نفسه لا نملك البرهان العلمي على نقائضها إلا أن إنكارنا لهذه المسائل ـــ على فرض صحتها وأحقيتها ـــ يعرضنا للشقاء الأبدي ، وإذا كان لا مندوحة لنا من اختيار طرفي الإيمان أو عدمه فإن الإيمان والاعتقاد أدعى إلى الطمأنينة وأقرب إلى ما يقره كل من النفس والعقل من مبدأ الحيطة والحذر)) ، ويذهب البوطي إلى أن مرد هذه النظرية إلى الصراع القائم بين هذه المسائل الدينية في المسيحية و بين الحقائق العلمية ، ولذا آثر جيمس وأمثاله التوفيق بين منهج العلم والدين الذي تقود إليه الفطرة بهذا الشكل ، ينظر : البوطي ، من الفكر والقلب (مصدر سابق) ، ص 59، الهامش .

2- البوطي ، من الفكر والقلب (مصدر سابق) ، ص 60.

3 ـ المصدر نفسه ، ص 61.

الباحثين الذين إذا قلت لهم إن الدين يرفض المزاعم العلمية القائلة كذا وكذا ، أجابك أنه باحث علمي لا شأن له بالدين .

ولكن هل يمكن أن نفهم مما سبق قوله أن الشيخ البوطي ممن يتنكرون للمعرفة الحسية ؟ وهل للمعرفة الحسية وجود عند الصوفية ؟ وذلك كله من الأسئلة التي تلح على العقل وتأبى إلا أن تطرح نفسها في هذا السياق ، وهو ما سنقف عليه فيما يلي الحديث عنه .

2- المعرفة الحسية عند الصوفية :

نفهم من كلام البوطي ــ في هذا الصدد ــ أن هناك معرفة حسية لا يمكن إنكارها ، وهي المعرفة التي تدرك بالتجربة ، غير أنه يزف لنا هذه الحقيقة في إطار المنهج المعرفي المتكامل ، الذي يلم بين المصادر المعرفية الثلاثة ، والتي لا يمكن الفصل بينها ، وإنما تطبق بحسب طبيعة الموضوع المدروس ، بل إن القضايا التي لا تدرك إلا بالمشاهدة والتجربة ((فالمنهج هو الاعتماد على التجربة الحسية فعلا ، ولا يغني عن هذا المنهج شيء[1])) .

والبوطي باحث مسلم مقر بالإدراك الحسي ، وعمدته في ذلك الوحي[2] ،إذ إن القرآن الكريم كثيرا ما يدع إلى استعمال الحس ، وينوه به ، كما في قوله تعال :((**قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ**[3])) ، وقوله : ((**أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**.....**الآيات**[4])) وقوله عن الحواس : ((**إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا** ۝[5])) ، ومثل ذلك في

---

[1]ــ البوطي ، هذه مشكلاتهم (مصدر سابق) ، ص 122.

[2]ــ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[3]ــ سورة العنكبوت، الآية 20.

[4]ــ سورة الغاشية، الآية17.

[5]ــ سورة الإسراء ، الآية 36.

القرآن كثير ، والقرآن نفسه يحث على النظر العقـــلي في عالم الحس ، وبذلك فالقرآن نفسه لا يفصل بين العقل والحس .

غير أن الأهم من ذلك كله هو أنه بعد تحصيل المعرفة الحسية ، لا ينبغي الوقوف عندها وحبـــس النـــفس فيها ، بل يجب تجاوزها للوصول إلى الفاعل الحقيـــقي الذي هو الله تعالى ، أي إختراق الآثار إلى المؤثر ،فالظواهر الحسية من اضطرابات طبيعية وموجات حرارية وغيرها من مختلف آثار الطبيعة إنما هي آثار دالة على المؤثر [1] .

ومعنى ذلك أن العالم الحسي صفحة كاشـــفة عن بارئها لا غير ، ودعوة القرآن إلى البحث فيه وتسخير محتوياته إنما الغاية منها هي التعرف على الله تعالى في من خلال خلقه ، وكل معرفة حسية لا تفضي بنا إلى هذه الحقيقة هي معرفة قاصرة مسلوبة القيمة .

وهذا هو الهدف من المعرفة الحسية هو الذي وقف عليه البوطي ، وفي أزيد من موضع ، وانطلاقا من رؤيته الإسلامية ، وفي سياق نقده للتجريبيين ، الذين يعكفون على الحس لا يبرحونه إلى ما وراءه، معتمدين في ذلك على المنهج الحسي دون سواه ، معلقين عليه كل اليقين ، مبينا لهم أنه قد فاتتهم أوضح حقيقة تجريبية ،وهي تجربة هذا الكون المعلن عن مبدعه الفاطر الحكيم ،وتجربة الرسل والأنبياء عبر مراحل طويلة متفاوتة ، وهم يترجمون ما يعلن عنه هذا الكون من النطق بمكونه ،وهذا من أوضح الحقائق التجريبية التي يغفلها العقل الغربي وتتبعه في ذلك عقول شرقية كثيرة[2] .

3- مجالات المعرفة الحسية :

تبين مما سبق أن المعرفة الحسية تتكئ على المشاهدة والتجريب ، معتمدة على العالم الخارجي الذي تطأه الحواس ، وتبحث فيه ، وتصل إلى خباياه ، كما تبين كذلك أن البوطي كعالم مسلم لا يتنكر

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، المجلد 2 ، ص 56.

[2]ـ البوطي ، تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث (مصدر سابق) ، ص 47.

للحس ، ولا للمنهج التجريبي المطبق في عالم الحس ، وإنما يحـــدد مجاله الذي يعمل فيه ، بحيث لو تجاوزه لم يعد صالحا للوصول بنا إلى الحقيقة واليقين ، وعليه فإن الطبيعة المادية للمحسوسات هي

التي تفرض المنهج الأنسب الذي به يتوصل إلى حقائقها ، وتحدد السبيل المسلوك لإدراكها ، فما كان معرفة متعلقة بموجود مادي ، لا يدرك ولا يتوصل إليه إلا بناء على شواهد وبراهين مادية (المشاهدة والتجربة) ، وتأصيلا لهذا يقول البوطي : ((والإسلام لا يتردد في تبني كل ما يثبت تحقيقا بهذه الوسيلة[1])) .

كما أننا نجد القرآن الكريم نفسه يلفت أنظارنا إلى عالم الحس ، ويحثنا على النّظر والتأمل فيه ، وهي دعوة صريحة للمسلم إلى ولوج هذا العالم وإدراك كنهه ، والبحث فيه بالوسائل العلمية الكاشفة ولا يفوتنا أن ندرك أن القرآن الكريم إذ يأمرنا بولوج عالم المحسوسات ،لا يستوقفنا عندها ، ولا يجعل لنا منها غاية ننتهي عندها ، وإنما يجعل لنا من عالم الحس آية دالة على وجود الله ، موصلة إلى معرفته وكل معرفة ـــ في الإسلام ـــ مرادة لذاتها لا وزن لها في ميزان الشرع ، وهي داخلة في قوله تعالى : ((**وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُوراً ﴿٢٣﴾**))[2] .

ويحدد البوطي بأكثر دقة مجال المعرفة الحسية ، والمنهج المناسب لها فيقول : ((إذ من شأن هذه العلوم ـــ أي العلوم الطبيعية ـــ ألا تدرك إدراكا يقينيا إلا عن طريق البـــدء بموضوعات توجد في التجربة الخارجية البعيدة عن وحي العقل والتفكير ، ثم تـــفرض نفسها عليه وفـــق ما دلت عليه المشاهدة والتجريب ، وبعد ذلك على العقل أن يفسرها ويحللها))[3] .

---

[1]ـ البوطي ، كبرى اليقينيات الكونية (مصدر سابق) ، ص 37.

[2]ـ سورة الفرقان ، الآية 23.

[3]ـ البوطي ، المصدر نفسه ، ص 52، (الهامش) .

ويتضح لنا من خلال ما سبق أن لكل معرفة منهجها الخاص الذي يستقل بدراستها ، وهذا لا يعني انفصال هذه المناهج عن بعضها ، وعدم حاجة كل منها إلى الأخرى ، بل ـــ وكما سبق القول ـــ هناك علاقة تكاملية بينها ، فما يدرك بالحس لا بد له من عقل يشارك في تحليله ودراسته .

بل إن الفصل بين مناهج العلوم ومدارك المعرفة هو السر في ارتقاء أوربا أرقى مدارج السلم التطوري على الصعيد الحسي الملموس ، وتخلفها الكبير في مجال الروحانيات والغيبيات التي لا سبيل إليها إلا سبيل الخبر الصادق والذوق الرفيع ، مما نتج عنه حضارة مادية مسلوبة القيم والمبادئ ، لا أثر لعالم الروح في ساحتها .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

– المبحث الثالث : المعرفة الإلهامية (الذوقية) عند البوطي .

1 – طبيعة المعرفة الإلهامية :

المعرفة الإلهامية أو الذوقية هي المعرفة الحاصلة عن طريق القلب ، بعيدا عن عالم العقل والحس ، وهي المعرفة التي تبناها الصوفية في إطار ما يسمى بالكشف ، وفي مقدمة الصوفية الذين كشفوا عن حقيقة هذه المعرفة ،الإمام أبو حامد الغزالي[1] ـــ رحمه الله ـــ ،ولذلك لا نعثر على باحث يتكلم عن التصوف والمعرفة الذوقية ويغفل الغزالي ، لأنه فرض نفسه فرضا في التصوف وأكسبه المواطنة .

والشيخ البوطي باحث مخلص للحقيقة ، وله من الشروحات في هذا المجال ما لا يجوز إغفاله فهو يدرك أن القلب محل المعرفة ، وبالتالي فمن الواجب تخليته وتحليته حتى يكون مهيأ لأن تنعكس فيه العلوم ، وفي هذا السياق يقول : ((أتهيأ لمعرفة ذاتي والوقوف على هويتي عبدا مملوكا لله عز وجل ، وستسلمني هذه المعرفة إلى منهاج من الأذكار أجعل منها أورادي الدائمة ، وسيكون الإكثار من تلاوة القرآن بتدبر وتأمل في مقدمتها ، وشيئا فشيئا ستنجلي أمامي المكونات على حقيقتها))[2] وهذه دلالة صريحة على علوم القوم ،

1– ذلك لأن الإمام الغزالي (ت 505ه) بدأ بتحصيل علم الكلام والفلسفة ، حتى كان أرفع درجة من أصحاب هذه العلوم ، ثم أدرك بعد شوط قضاه في ذلك أن هذه العلوم وافية بمقصودهم غير وافية بمقصوده ، وبعد مرحلة من الشك المرير التي مر بها ، أدرك أن أسلم وأقرب طريقة هي طريقة الصوفية ، وأن أخلاقهم هي أزكى الأخلاق ، وأن سيرهم هو أحسن السير ، وكان يرى أن المعرفة تارة تهجم على القلب كأنه ألقيت فيه ، وأحيانا تكتسب من طريق الإستدلال والتعلم ، فما يأتي القلب ويهجم عليه بعيدا عن الدليل والإكتساب يسمى إلهاما ، وما يحصل بالإستدلال يسمى اعتبارا واستبصارا ، ويرى أن للقلب استعداد لأن تتجلى فيه حقيقة الحق ، وإنما يحال بين القلب و المعرفة بالأسباب ، فهي الحجاب المسدل بين القلب والعلوم التي في اللوح المحفوظ الذي هو منقوش بجميع ما قضى الله به إلى يوم القيامة ، ينظر الإحياء ، ج8 ، ص 32، وينظر سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، ط4، القاهرة : دار المعارف ، دت ، ص 124.

2– البوطي ، الحكم العطائية شرح وتحليل (مصدر سابق) ، المجلد 1، ص 161.

وبيان واضح على تقوية القلب بالذكر ، وفي مقدمته تلاوة القرآن ، والتدبر فيه ، وهذا كله ما يرتقي بالقلب إلى مقام المعرفة اللدنية .

وكما أن البوطي رأيناه فيما سبق يجمع بين العقل والحواس ، فإننا نراه كذلك هنا يجمع بين القلب والحواس ،فيرى أن المدركات الحسية تنعكس على لوحة القلب ، وتمنحه نوعا من الذوق ، وتلهمه لونا من الإدراك ، أي الإدراك القلبي ،يقول :((إن وقع بصرك من الدنيا على شيء ينسجم مع رغائبك ، ومع ما وجه الله آمالك وأحلامك إليه انعكس من ذلك شعور على لوحة القلب ، وأورثك ما نسميه الحب ، وإن وقع بصرك على ما لا يتفق مع مزاجك وأهوائك انعكس من ذلك شعور آخر على لوحة القلب أورثك ما نسميه الكراهية))[1] ،وهذا مثال يجسد طبيعة المعرفة القلبية ويضفي عليها كثيرا من الوضوح .

وما يزيد الصورة وضوحا ويزيل عنها كل لبس يمكن أن يحفها ، قول ابن عطاء الله: ((كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ، أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ، أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته)) ، وانطلاقا من كلام ابن عطاء الله يمدنا البوطي بمثال على نحو ما فعله الغزالي كما تبين ، والمثال الذي يضربه البوطي مثال بالمرآة التي تعكس كل جسم متواجد أمامها ، فإذا وجهتها إلى بئر مظلمة غدا سطحها أسود مظلم ، وإن أنت وجهتها إلى الشمس رأيت كيف يتلألأ سطحها مثل ضياء الشمس ، وهكذا ، وكذلك أمر القلب إن وجهته إلى متع الدنيا انطبعت عليه ، ويغدو لا أثر لمعرفة الله على صفحته ، وإن وجهته إلى معرفة الله خلى من السوى ،وانتفت منه جميع المكونات ، وذلك بعدما ارتسمت عليه صورة المكون ، ويشرق القلب بنور المعرفة بانتفاء

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) مجلد 1 ، ص 181.

صور الأكوان عليه ، وبانتفاء الحجب ، والحجب هي الشهوات التي تتراكم في القلب فتدنو به ، وتجعله يثّاقل إلى الأرض[1].

ويبين البوطي أن سبيل التحرر من أسر هذه الشهوات إنما هو بالبعد عن الغفلات ، والبعد عن الغفلات سبيله البعد عن الهفوات ، فالإستغراق في الغفلات هو السبب في الإستسلام لأسر الشهوات ومن استسلم لأسر الشهوات هيمنت صور الأكوان على صفحة قلبه[2] .

وجلي ـــ من هذا الكلام ـــ أن المعرفة لا تحصل في القلب إلا بعد تطهيره من الغفلات والهفوات ، وتحريره من أسر الشهوات ،وتحليته بالذكر والخلوة وكل ما من شأنه أن يجعله محلا للمعارف والأسرار ، وهو ما أشار إليه أبو يزيد البسطامي بقوله : ((أخذتم علمكم ميتا عن ميت ، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت)) ، وإلى مثله قصد ابن عطاء الله السكندري عندما قال: ((فرّغ قلبك من الأغيار يملأه بالمعرف والأسرار))، وهو ما نقف عليه كذلك في قول ابن عربي : ((المتأهب إذا لزم الخلوة والذكر ، وفرّغ المحل من الفكر ، وقعد فقيرا عند باب ربه ، حينئذ يمنحه الله تعالى ويعطيه من العلم به ، ومن الأسرار الإلهية والمعارف الربانية))[3]

والمعرفة الذوقية لا سبيل للعقل إليها ، ولا قدرة له على إدراكها ، كما لا يملك أهل الدليل والبرهان عليها دليلا ولا برهانا ، ويضرب لنا ابن عربي مثالا يبصرنا من خلاله بحقيقة هذه المعرفة، وكيف أن العقل هو أعجز من أن يدرك حقيقتها ، فيقول شتان بين

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ص 187.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 188.

[3]ـ ابن عربي ، الفتوحات المكية (مرجع سابق) ، المجلد 1، ص 31.

من يصف لك العسل ومن يمنحك منه شيئا فتذوقه ، وبين من يصف لك مرارة الصبر وبين كونك صابرا ،فمحال أن يعلمها أحد من الناس ما لم يذقها ويتصف بها[1] .

وهي على نحو ما عبّر عنه الغزالي في أزيد من موضع ، من مثل قوله : ((نور قذفه الله في قلبي)) ، وقوله :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيرا ولا تسأل الخبر .

ويبين البوطي أن من ألوان الإستقامة التي هي من الموارد التي تفيض على القلب بالأسرار الربانية والمعارف العلوية ــ إضافة إلى ما سبق ــ الصلاة ،بل إن الصلاة هي الميدان الذي يتعرض فيه المصلي لتلك الأسرار العلوية التي تنزل على القلب وتحل فيه وتسري في كيانه[2] .

وفي سياق بيان البوطي للمعرفة الذوقية ، ومن باب زيادة الإيضاح وتقريب المعنى ، ينقل لنا شواهد من واقع بعض الأعلام ، ومنهم ابن سينا ، إذ استغلقت عليه مسألة من المسائل العلمية التي كان بصدد البحث فيها ، وما نالها إلا بعد توضأ وصلى ودعا الله تعالى ، فما كان إلا أن ألهمه الله تعالى وجه الحق فيها[3] ، والإمام الشافعي (ت**204**) ، وهو من كبار الفقهاء ، إذ أبان له شيخه وكيع أن المعاصي حجب القلب ، وقال في ذلك قوله المشهور:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

---

[1]ــ المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

[2]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج 3 ، ص 51.

[3]ــ المصدر نفسه ، ج 4، ص 36.

وقـــــال لي إن العـــلم نـــور ونور الله لا يهدى لعاصي[1].

وصدق الله تعالى العظيم إذ قال :((وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ الاية[2])).

2- الذوق وعوائق الحس :

من الإشكالات التي يمكن أن تطرق عقل الباحث في المعرفة الصوفية ، إشكالية المعيقات التي تحول دون صفاء القلب ، وتكون حاجبة له عن إدراك الحقائق ،ومن أكبر هذه المعيقات المحسوسات التي حوله ، إذ إن الحواس لا تملك إلا أن تنصرف نحوها وتشغل بها ، فالعين لا تملك إلا أن تبصـــر ما حولها ، والأذن تأبى إلا أن تسمع مختلف الأصوات التي ترسل من هنا وهناك ، فكيف يملك صاحبها ألا ترتسم هذه الصور على صفحة الذاكرة ، ومن ثمة على صفـــحة القلب ، فتغدو حجبا حائلة دون إدراك القلب لتلك المعارف و الأسرار الربانية ؟

والشيخ البوطي لم يغفل هذه الإشكالية ، كما لم يغفل الإجابة عنها ،فهو يرى أن العارف بالله ، المتطهر من الغفلات والشهوات ، يستقبل ما يفد إليه من طريق الحواس على أنها آيات ناطقة بوجود الله ، دالة على صفاته ، وفي هذا يقول : ((صاحب هذا القلب الذاكر يرى زخـــرف الأرض من خضرة وزهور وورود ورياحين كما يراها التائهون الغافلون ، ولكن قلبه يذيبها ويحيلها إلى شعاع من الشوق إلى جمال الله ، والحيرة في بديع وعظيم صنع الله ..وهو يرى في الليل صفحة السماء تتلألأ بنجومها ، منورة ببدرها ، ولكن قلبه لا يتلقى هذه الصورة إلا رسالة وافدة إليه من عند الله ، فهو مهما قلّب ناظريه في آفاق السماء لا يتبين إلا مضمون هذه الرسالة ،وهو يتأمل في السماء التي تمطر، وفي الأرض التي تنبت ، وفي أنواع الأطعمة والفاكهة المتنوعة في مذاقها ورائحتها وألـــوانها، ولكن قلبه المحب الذاكر لا يتلقاها إلا نعما وافدة من من المولى المتفضل الكريم))[3] .

---

[1]ـ المصدر نفسه ، ص 37.

[2]ـ سورة البقرة ، الآية 281.

[3]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج 1، ص 193،194.

وهذه الحالة ـــ عند العارفين بالله ـــ هي وحدة الشهود ، وهي يقظة القلب بالحب والتعظيم لله تعالى والخوف منه ، مما يجعل هذا القلب لا يرى في رسم الأكوان إلا المكون ، ولا في صـــورة الآثار إلا المؤثر .

وبهذا ندرك هذا التحليل الجيد الذي يبصرنا به البوطي ، وهو أن الحس عند العارف بالله ليس إلا ممرا يعبر عليه إلى عالم الأذواق ، وتصبح المعرفة الحسية مجرد وسيلة إلى المعرفة الذوقية ، وهذه هي القيمة الحقيقية لعالم الحس ، ولذلك حثنا الله تعالى على ولوج هذا العالم والبحث فيه ، وإمعان النظر في كنهه ، وكثيرة آيات القرآن في هذا الصدد ، منها قوله تعالى :((**إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾**))[1] ، وقوله أيضا : ((**إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾**))[2].

والمتأمل في مثل هذه الآيات يدرك أنها توجهنا إلى عالم الحس ، ولكنها لا تستوقفنا عنده ، بل تعبر بنا من خلاله إلى معرفة الله ، باعتبار أنه دلالة ناطقة بوجوده ،وإمعان النظر في الحس هو لون من الذكر الذي يوقظ القلب ، ويدرأ عنه الغفلة ، ويسلمه إلى رحـــاب المحبة الإلهية ، ويذكـــره حقيقة العبودية ، ويرفعه إلى مقام الإحسان ، ويمنحه رؤية المكـــون لا الأكوان ، وتلك هي وحدة الشهود التي إذا بلغها القلب المسلم غدا أهلا لتنـــزّل الأنوار واستقبال الأسرار .

والبوطي يبين هذه المعاني ويستلها من قول إبن عطاء الله السكندري إذ يقول : ((إنما أورد عليك الوارد لتكون به عليه واردا ، أورد عليك الوارد ليستلك من الأغيار ، ويحررك من رق الآثار ،أورد

---

[1]ـــ سورة آل عمران ، الآية 190.

[2]ـــ سورة البقرة ، الآية 164.

عليك الوارد ليخرجك من سجن وجودك إلى فضاء شهودك)) والشيخ البوطي هنا [1]يبين أن الوارد المذكور في حكمة إبن عطاء الله هو ما يرد على القلب من اللطائف الرحمانية والمعرف الربانية ، وذلك ـــ بالطبع ـــ بعدما تنمحي المكونات من على صفحته ، وهو ما يذهب إليه الإمام الشرنوبي ، حيث يبين أن الله تعالى يورد على قلب المريد الوارد ، وهو تلك المعارف الربانية واللطائف الرحمانية ليكون بذلك ـــ أي الوارد ـــ المطهّر للقلب ، عليه واردا[2] .

إن الورود على الله تعالى لا يكون إلا بصدق التوجـــه إليه ، والدخول عليه بالقـــلب ، ولا يكون الوصول إليه إلا به ، وذلك بعد زوال الآثار ، ومحو الذات ، والفناء عن الوجود في الموجود ، على نحو ما قال الجنيد : ((أن يميتك الحق عنك ويحييك به)) .

والذي يمكن فهمه من هذا أن بداية الطريق معرفة المكون من خلال الأكوان ، فإذا تم الدخول عليه وكان التعرف عليه قائما في القلب ، انمحت الأكوان وبقي المكون ، وزالت الأسباب وبقي المسبب وانعدمت الآثار وبقي المؤثر ، فكأن عالم الحس خادم لمعرفة الله ، فإذا عرفناه زال من قلوبنا الحس وفرغ القلب إلا منه سبحانه .

3- حدود وضوابط المعرفة الذوقية :

يقول الإمام ابن عطاء الله السكندري : ((سبحان من ستر سر الخصوصية بظهور وصف البشرية وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية)) والمقصود بسر الخصوصية هو ما خص الله به أوليائه من المعارف الذوقية التي أشرقت في قلوبهم ، ومن التجليات الربانية التي أكرمهم بها ، فسبحان الله الذي ستر وأخفى هذه الأسرار التي خص بها بعض عباده العارفين .

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية ، ج2، ص 49.

2ـ عبد المجيد الشرنوبي ، شرح الحكم العطائية ، تحقيق عبد الفتاح البزم ، دط ، الجزائر ـــ عين مليلةـــ : دار الهدى ، دت ، ص59.

ومعنى هذا أنه تعالى ستر هذه النعمة وهذه المعرفة ، وغطاها بأوصاف بشريتهم ، وهذه البشرية هي قاسم مشترك بين سائر العباد ، فهم يأكلون الطعام كسائر الناس ، ويمشون في الأسواق كما يمشي عباد الله جميعهم ، فلا مظـــهر يعلو بهم فوق الخليقة ، وفي هذا يقـــول البوطي : ((وربما يتاح لك بطريقة ما أن ترى واحدا منهم ، وأن تتعرف عليه ، وأن تهتدي إلى يقين جازم بأنه من أولـــياء الله المقربين ، وتبحث فيه عن الخصائص المميزة التي كنت تتخيلها ، وعن المظهر الملائكي الذي ينبغي أن يسمو به عن حال عامة الناس والبشرية التي يتقـــلبون فيها ، فلا تعثـــر فيه عن شيء من هذا الذي تبحث عنه ، يأكل كما يأكلون ، ويشرب كما يشربون ، وتتحكم به نوازع الـــبشرية كلها كما تتحكم بالآخرين))[1] ، وعليه فإن الخصوصية التي ميز الله بها بعض عباده مستترة مضمرة ، لا يملك أحد أن يعلمها أو يطّلع عليها ، وهي كما قال الإمام الشرنوبي نقلا عن ابن عطاء الله : ((لا بد للشمس من ســـحاب ، وللحسناء من نقاب))[2] .

ومما سبق يمكننا أن نقف على أن المعارف الربانية والأسرار يكرم الله بها أولياءه العارفين به ، ثم يضفي الله تعالى عليها ستائره وحجبه فلا يدركها عقل من عقلْ ، ولا يتفطن إليها حاذق ولا ألمعي ، فما الحكمة أن تأتي خفية غير معلنة ؟ وهل صاحب هذه الخصوصية على علم بحال خصوصيته ، أم بينه وبينها ـــ هو الآخر حجاب ـــ فلا علم له بها ؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة تفضي بنا إلى سؤال آخر جوهري ، وهو عن ضوابط هذه النعمة الربانية وحدودها ، فنقول: إن البوطي رحمه الله كشف الحجاب عن هذه التساؤلات التي يثيرها الذهن وأزال اللبس عنها ، كما يلي :

– يذهب البوطي إلى أن الحكمة من أن تكون خصوصية أولياء الله مستورة في رداء الأوصـــاف البشرية ، هي أنهم لو كشف أمرهم من طرف الناس لأصبحوا فتنة لهم ، ولذهبوا في تفسير شأنهم

---

[1]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج2، ص 540.

[2]ـــ الشرنوبي ، شرح الحكم العطائية (مرجع سابق) ، ص 90.

معها كل مذهب[1] ،وربما من الدهماء من يقوده مثل هذا إلى ألوان من الشرك ، بل إن مثل هذا اللون من العلم لا صلة للعوام به ، إذ لو اطّلعوا عليه لكان فتنة لهم وفسادا كبيرا .

– كما يرى البوطي أن ولي الله نفسه **قد لا يعلم عن حاله هذه شيئا** ، لأن علمه بذلك قد يكون سبب فتنته هو نفسه ، فإن الله تعالى قد ينعم على عبده فيرفع درجته عنده تعالى ، دون أن يعلمه أو يطلعه على شيء من ذلك ، فعجبا لمن يجلجل بين الناس بدعوى الخصوصية[2]. والمستغرب في حال من يدّعي الخصوصية ، وربما يفتخر بين الناس بأنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، أن يخبرونا عن الذي أعلمهم أنهم كذلك ، وكشف لهم عن ستائر الغيب فأعلمهم أنهم مكرمون من لدن عليم خبير ، ونحن نؤمن يقينا جازما أن الوحي انقطع زمن محمد ــ صلى الله عليه وسلّم ــ .

– **أن تكون مقيدة بالكتاب والسنة** ، وهذا ما يبينه البوطي بقوله :((فإن سلطان الشريعة الإسلامية يجب أن يكون مهيمنا ونافذا ، في كل الظروف والأحوال ، وعلى سائر فئات الناس ، وعندما تكون ثمة خصوصيات علوية من الله لبعض من عباده المجتبين ،فإن الحكمة تقتضي أن تختفي تلك الخصوصيات تحت جناح الشريعة الإسلامية وسلطانها ،لا أن تختفي الشريعة أو تحيد أمام مظهر تلك الخصوصيات))[3] .

– **أن تكون خفية مستترة** ــ كما سبق وأن أشرنا ــ بأوصاف البشرية ، فالقرآن الكريم عندما تحدّث عن النبوة ، بين أنها لا تتعارض مع أوصاف البشرية ، ((**قُلِ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَى ...الاية**))[4] فإذا كانت النبوة لا تزيل الصفات البشرية ، فمن باب أولى ما دونها ، وفي السنة

---

[1]ــ البوطي ، المصدر نفسه ، ج 1 ، ص 541.

[2]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج 2، ص 542.

[3]ــ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[4]ــ سورة الكهف ، الآية 105 .

النبوية ما يعزز هذا، فقد جاء في الحديث : ((رب أشعث أغبر ذي طمرين ، تنبو عنه أعين الناس ، لو أقسم على الله لأبرّه))[1] .

إذا فمن شروط الخصوصية أن تكون خفية مستترة ، وينبغي أن نعلم أن هذا الستر إنما هو بأوصاف بشرية لا أكثر ، ليس فيها ما يتنافى مع حقيقة العبودية ، وإلا خرجت عن الكتاب والسنة، وقد قلنا إن كل معرفة خارجة عن هذا القيد لا يعتد بها ، وهذا ما يبينه الشيخ البوطي ـــ رحمه الله ـــ وهو ما ذهب إليه ابن عجيبة ـــ رحمه الله ـــ حيث قال : ((فالله تعالى قد ستر سر الخصوصية بأوصاف ذاتية لازمة للبشرية ، كأكل وشرب ونكاح إلخ ... لا بأوصاف منافية للعبودية كالعجب والكبر، فهذه أوصاف أزالتها أنوار العناية الإلهية ، لا تثبت الخصوصية إلا بعد محوها وزوالها والتطهر منها))[2]

– **ليس كل من جرت على يديه الخوارق والأعاجيب يعد وليا وعارفا بالله** ، ولذلك نجد أن البوطي يبين أنه كثيرا ما تكون الخوارق مظهرا لحرفة ، تعلمها صاحبها وتمرس بها وأتقنها وبرع فيها، أو قد تكون نتيجة تدجيل يتقنه أصحابه ، أو طائفة من أعمال بعض الشياطين يدعمون بها السائرين ورائهم من أوليائهم [3].

ومما سبق يتبين أن الكرامة هي تكريم من الله لعبده بالإستقامة على شريعته لا أكثر ، فإن أنعم الله على عبده بالإستقامة فذلك هو المطلوب ، ثم إن أنعم الله عليه بالخصوصية ، فعليه بسترها ، وعلى أية حال فإن الميزان هو الكتاب والسنة .

وهو ما ذهب إليه ابن تيمية ، حيث يصرّح أن أعظم كرامة هي الإستقامة ، ولا ينفي وجودها وإنما يضعها في حدودها الموافقة للمنقول والمعقول ، يقول : ((وأما المعجزات التي لغير الأنبياء ، من

1– رواه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، حديث رقم 2550.

[2]ـــ أحمد بن عجيبة ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، دط ، دمشق : دار الفكر ، دت ، ص 157.

[3]ـــ البوطي ، الحكم العطائية ، ج 2، ص 563.

باب الكشف والعلم ، فمثل قول عمر في قصة سارية الجبل ،وإخبار أبي بكر بأن ببطن زوجته أنثى ، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلا ، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام))[1] ، وإلى مثله ذهب ابن عجيبة ، ورأى أنه لا كرامة أعظم من الإستقامة والمعرفة ورفع الحجاب وفتح الباب[2].

وفي سياق الحديث عن حدود المعرفة الإلهامية ، يكشف لنا البوطي ـــ رحمه الله ـــ عن قيد دقيق ، يزيل كثيرا من اللبس الذي يحوم حول هذا اللون من المعرفة ، وهذا القيد هو أن المعرفة الذوقيـــة لا شأن لها بالمعارف والمدركات العقلية التي يحشى بها العقل ، وذلك لأن هذه المعارف هي قاسم مشترك بين الناس جميعا ، كافرهم ومؤمنهم [3]، أي إن المعرفة الذوقية هي معرفة يخص الله بها بعضا من عباده بعد تخلية وتحلية .

4- المناهج المعرفية بين الإنفصال والإتصال :

تبين مما سبق القول فيه أن المعرفة متعددة الموارد ، فمنها ما يرد عن طريق العقل ، ومنها ما يرد عن طريق التجربة الحسية ، ومنها ما يرد عن طريق القلب .

والمتأمل في الفلسفات الغربية يقف على عجزها في التوفيق بين مناهج المعرفة ، فالحسيون يتنـــكرون لإمكانية بلوغ العقل معرفة حقيقية ، والعقليون يرون قدرة العقل على إنتاج المعرفة ، إعتـــمادا على إمكاناته الذاتية لوحدها ، دون حاجة إلى أية تجربة حسية ،وآمنوا باحتواء هذا العقل على مبادئ فطرية أو قبلية مطلقة وسابقة على التجربة ، وهي الأساس في كل معرفة ، وهكذا عاشت المدارس الغربية هذا الصراع بين العقل والحس ، وهكذا نقف على هذه القطيعة التامة بين

1ـ ابن تيمية ، مجموع الفتاوى ، جمع وترتيب عبد الرحمان بن محمد بن قاسم ، دط ، الرباط : مكتبة المعارف ، دت ، المجلد 11 ، ص 320.

2ـ أحمد بن عجيبة الحسني ، إيقاظ الهمم في شرح الحكم ، دط ، بيروت : دار الفكر ، دت ، ص 159.

3ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج4 ، ص 37.

المناهج في الفكر الغربي وهذا باستثناء محاولات كانط في الجمع بين العقل والحس ، وذلك لأن التجربة تتميز بالواقعية وأحكام العقل تتميز بالضرورة .

أما الفكر الإسلامي فقد ألـــمّ بوضوح بين هذه المناهج ، وذلك في سياق تكاملي ، يجعل من المعرفة كلا مركّبا من أطرافه الثلاثة ، العقل والحس والذوق ، بل إن الوحي الكريم من قرآن وسنة نفسه لا يهمل هذه الوسائل الثلاث ، بل يخاطب الإنسان ويوجهه إلى استعمالها كوسائل إدراك عنده، وكل في حدوده التي يتناسب معها .

والشيخ البوطي لم يتغافل عن هذه المسألة ، بل إنه من علماء العصر الذين كشفوا اللبس عنها ، وكان له بهذه النقطة تحديدا إهتمام كبير ، حيث طرح إشكالية البحث عن الحقيقة بين المنهج العلمي والمنهج الديني ، مبتدأ ذلك بسؤال جوهري عن الفرق الذي بينهما ، إن كان بينهما فرق[1] .

ثم ناقش هذه المسألة ، بأن كشف عن مفهوم العلم أولا[2] ، مفندا تلك المزاعـــم التي تذهب إلى أن العقل لا يستيقن من الموجودات إلا ما وفد منها إليه عن طريق هذا العلم وحده ، وهي مزاعم تحوي تناقضات عجيبة في عقول أصحابها ، إذ هل يؤمن ـــ مثلا ـــ أصحاب الطـــريقة التجـــريبية ببراعة المهندس الذي أقام صرح أشبيلية ؟ وهل يمكن أن يتجاهل هؤلاء إعجابهم بعبـــقرية ذاك الذي ألّف تلك الألحان التي يطربون لها ؟

وكل هذه المدركات وغيرها يؤمن بها التجريبيون ، ولكن شيء من ذلك لم يقع عندهم تحت التجربة الحسية ، وكلما في الأمر أنها من الأمور التي يدركها العقل عن طريق الإستنتاج [3] ، وواضح مدى الفرق بين دليل التجربة ودليل الإستنتاج .

---

[1]ـ البوطي ، من الفكر والقلب (مصدر سابق) ، ص 58.

2ـ قدم البوطي المعنى المنطقي واللغوي المعروف للعلم ، وهو إدراك الشيء على ما هو عليه في الواقع بدليل ، والمعنى الحديث له وهو البحث في تحليل الموجودات الخاضعة لإحدى الحواس البشرية ، وهو يريد بذلك أن يبين أن العلم لا يتعلق فقط بالمحسوسات ، وإنما الأصل فيه كل معرفة قائمة على البرهان الصحيح .

[3]ـ البوطي ، من الفكر والقلب (مصدر سابق) ، ص 62.

ثم إن القرآن الكريم في خطابه يجمع بين هذه المدركات على حد سواء ، فهو أولا يخاطب العقل ، ثم يحثه على النظر والتأمل في عالم الحس ، كما يخاطب فيه عنصر الذوق كذلك ، يظـــهر ذلك في مثل قوله تعالى : ((سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْآفَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ[1])) ، وقوله كـــذلك: ((قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ[2])) ،ومثل هذه الآيات تحمل دلالة كافية على توجيه العقل نحو عالم الحس ، والتأمل فيه والنظر ، ومن الفئات التي متعها الله بنور المعرفة من النظر في الآفاق وفي المكونات ، فكلما نظروا إلى الأكوان والمكونات تذكروا المكون[3] وهو ما يبين لنا بوضوح أهمية المعرفة الحسية والنظر العقلي في معرفة الله .

ويذهب البوطي كذلك إلى أن من الفئات التي متعها الله بنور المعرفة ، تلك الفئة التي ترى الآيات الكونية ، ولكنهم لا يشاهدون فيها المكون ، فيتأملون فيها ثم يعودن إلى مـــا يقرره العقـــل ((من أن هذه المكونات كلها حادثة بدليل ما يعتريها من التغير المستمر ، وكل حادث لا بد له من محدث ، وهذا المحدث هو الله ، كما يصلون أيضا إلى اليقين بأن هذه المكونات لو كانت قديمـــة لا أول لها ، يتوالد بعضها من بعض إلى ما لا نهاية ، إذن لاستلزم ذلك تسلسل العلل غير الذاتية إلى ما لا نهاية وهو مستحيل[4])).

والذي يفهم من هذا كله إنما هو أهمية كل من العقل والحس في المعرفة ،وكل ما في الأمر أن الإعتماد على ذلك لا ينبغي أن يكون نهاية الباحث ، ولا ينبغي لطالب المعرفة أن يقف عند ذلك ويحبس نفسه في هذه المجالات ، بل عليه إذا استعملها وفرغ منها أن يرتقي فوقها حيث وحدة الشهود ، ورؤيـــة المكون في الأكوان ، وهذا أمر هو من الوضوح بمكان ، لأن الصوفي لا يرى إلا

---

[1]ـ سورة فصّلت ، الآية 53.

[2]ـ سورة العنكبوت ، الآية 19.

[3]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، ص 209.

[4]ـ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

الله ، ولا يتـــجه إلا إلى الله ، ولا يهدف إلا إلى الوصول إلى الله . أما سبيل العقل وحده ، أو سبيل الحس منفـــردا فإن صاحبه إذا حصر نفسه فيه ، فقد يبلغ حقـــيقة ما ولكنه لا يأمن على نفسه أن تعود إليه الشـــكوك والجهالات .

إن الإشكالية التي اجتاحت العقل الغربي ، وجعلته يعيش أزمة الصراع بين المناهج ، هي اعتماده العقل والوقوف عنده ، أو اعتماد عالم الحس والعكوف عليه ، فجاءت المعـــرفة ـــ تبعا لذلك ـــ قاصرة ، سجنتها المكونات عن المكون ، وشغلها السبب عن المسبب ، وحظها من المعرفة ((**وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُوراً فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ** ۝٤٠ [1])) ، وهم الذين ينعتهم البوطي بأنهم غرقوا بين سحب الآثار وحجبوا أنفسهم بالصور عن المصور ، وقد قال الله تعالى عنهم : ((**نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسِيٰهُمْ أَنفُسَهُمْ** [2]))[3]

أما المعرفة الصوفية عندما يبلغها الصوفي ، أو يلهم إياها فإن الأمر يتحول عنده إلى النقيض من ذلك تماما ، إذ لم يعد في حاجة إلى تلك البراهين العقلية الموصلة إلى الحقيقة ،ولم يعد يعتمد على أي دليل ابتغاء إدراك المعرفة ، بل إنه يصبح وجود الله حقيقة ثابتة في قلوبهم ، وبها يرون المكونات ، فكما أن العقليين توصلهم الأدلة إلى الله ، فإن الصـــوفية يرون المكون ، وبه يرون المكـــونات ، فالله تعـــالى هو الدليل على المكونات ، وليست المكونات هي الدليـــل عليه ، وهذه هي الحقـــيقة التي يقـــف عندها البوطي ، ويقول في شأنها ((إن في الصالحين وأولياء الله تعالى من السلف الصالح، من لم يعد يجتاز إلى معرفة الله وشهوده أيا من طرق الإستدلال عليه بالمكونات وظواهر الموجودات والآثار، بل عرفوا الله واستغرقوا في شهوده وتجلياته دونما حاجة إلى شيء من ذلك ... نظـــروا إلى

---

[1]ـــ سورة النور ، الآية 39.

[2]ـــ سورة الحشر ، الآية 19.

[3]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، ص 393.

المخلوقات المحيطة بهم ، فلم يجدوا فيها إلا مظهر وحدانية الله عز وجل وعظيم صفاته ،فلم ينتقلوا خلال التأمل فيها من دليل إلى مدلول ، بل غاب عنهم الدليل وتجلى لهم المدلول ، غابت عنهم الوساطة والطـــريق ورأوا أنفسهم مباشرة أمام الغاية والمطلوب ، إذ لم يكن ما نراه نحن واسطة وسبيـــلا أقرب إليهم من الغاية والمطلوب ، ألا وهو الله عز وجل [1]))

وعليه فإن البوطي يرى أن سبيل العوام من الناس هو سبيل الإستدلالات التي بها يصلون إلى غايتهم فهم ينظرون في المكونات أولا ، ثم ينتهون بعد طول نظر وبحث إلى معرفة الله ، أما الخاصة فهم في غنى عن هذه الأدلة جميعا ، ولكن ذلك لا يعني بطلان طريق الأدلة ، وإنما يعني عدم الوقوف عنده ، والعكوف عليه ، وهو ـــ على أية حال ـــ دون الرتبة التي فيها يعرف الله مـــباشرة ، والمصيبة كل المصيبة إنما هي ((في أولئك الذين لم يعرفوا الله من أول الطريق ، و لم يهتـــدوا إليه في نهاية الـــنظر والبحث [2])) .

وغاية ما يمكن أن نخلص إليه أن المعرفة في الإسلام متكاملة الأطراف ، تمكنت من الجمع بين العقل والحس والذوق ، وعلماء الإسلام حينما بينوا تكاملية المعرفة إنما جعـــلوا عمدتهم في ذلك الكتاب والسنة ، ذلك أن الوحي الكريم هو الذي دفع بالعقل إلى أن يثار من غفوته ، وأن يجعل من الحس ميدان بحثه ابتغاء الوصول إلى الحقيقة وترسيخها والتحلي بها ، وهذا لا يتنافى مع المبدأ الصوفي الذي يتجاوز هذه الآثار ليعلق بالمؤثر ، وهو ما يجعلنا نفهم أن دليل الحس والعقل سليم إذا تحققت الغاية المرجوة منه ، ودليل الذوق أقرب لمن أكرمه الله به ورفعه إليه ،وطلب الدليل مرتبة على سلامتها هي دون مرتبة العرفان ، وفي كل خير .

كما يمكن أن نخلص كذلك إلى مدى عظمة الفكر الإسلامي ، في قوة مناهجه ودقة استخدامها ، وفي تحصيل معرفة لا تشوبها شائبة .

---

[1]ـ البوطي ، شرح الحكم (مصدر سابق) ، ج 1 ، ص 395.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 396.

والمعرفة القلبية ـــ التي مدار حديثنا عنها ـــ هي معرفة اختص الإسلام بها ، وهي تكريم من الله لبعض عباده ، ينبغي أن نعلم أنها لا تتأتى من فراغ ، وإنما تقع في القلب نتيجة مجاهدات ، وتحقق بمقامات ، وبممارسة العبودية لله تعالى على أتم صورة ، وكما طلبها منا ظاهرا وباطنا ، وما تقتضيه من ذكـــر وتدبر ، وافتقار إلى الله تعالى ، وشكر له ، وصبر وترك للدنيا ، وغير ذلك مما تقتضيه حقيقة العبودية لله تعالى ، وهو ما سنقف عليه ـــ بالتفصيل إن شاء الله ـــ في الفصل اللاحق .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثالث :

الممارسة الصوفية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الأول : الممارســـة التخليقية .

1 – التحقق بالمقامات :

1 – أ – التـــوبة : ينطلق البوطي ـــ رحمة الله عليه ـــ في بيانه للتوبة من منطلق العبودية لله تعالى ، هذه العبودية التي تقتضي تنفيذ الأمر الرباني كما أوجب ، وترك المنهي عنه كما حرم ، وذلك مع مطلق التذلل والإفتقار إليه تعالى ، والأدب معه ، هذا الأدب الذي يرتقي بصاحبه فيجـــعله يعرض عـــن المطالبة بالأجر على عمل يعمله ، وإنما يسترحمه بمقتضى ضعفه وحاجته[1] ، وكله رجاء في عفـــوه ورحمته .

ولعل في الناس من يتساءل : كيف لا ينقص من الرجاء في العفو وجود الذنب والزلل ؟ لا سيما وأننا نعلم أن الله تعالى يحذر من الذنوب والمعاصي ، ويتوعد بالعقاب عليها ، ونعلم كذلك أن رحمة الله لا تنزل إلا على المتقين ، بدليل نص الآية ((**فَسَأَكْتُبُهَا لِلذِينَ يَتَّقُونَ**[2])) .

ويبين البوطي أن العاصي الذي يطلب منه أن يظل راجيا لكرم الله وعفوه ومغفرته ، ليس له باب يدخل على الله منه إلا باب التوبة ،إذ لا يعقل أن يطرق العاصي باب الله تعالى راجيا صفحه ومغفرته وهولا يزال مصرا على معاصيه ، مطمئنا إلى آثامه[3] .

ونصوص القرآن الكريم في هذا الشـــأن صـــريحة ، منـــها قولـــه تعـــالى : ((**أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَاخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾**[4])) .

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، ص 33.

[2]ـ سورة الأعراف ، الآية 156.

[3]ـ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[4]ـ سورة التوبة ، الآية 105.

وقوله كذلك في موضع آخر : ((**وَهُوَ ٱلذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا يَفْعَلُونَ** ۝٢٣[1])) ، ويبين البوطي كذلك أن التوبة هي السبيل إلى بقاء الرجاء في القلب ، وزيادة حوافز التوبة في القلب تكون على قدر الأمل في مغفرة الله والندم على الذنب ، والطمع في صفح الله تعالى[2] ، وبهذا تبدو قوة الارتباط بين التوبة والرجاء ، فلا توبة مع يأس القلب ، ولا رجاء مع الإصرار على المعاصي .

وفي سياق آخر يبين البوطي أن المعاصي والآثام التي تقترف ، لا تكون للعبد المذنب سببا لمقت الله وغضبه ، لطالما أنها يتبعها ألم وندم يسوق صاحبه إلى التوبة ، ومن سنن الله في عباده أنه يقبل توبة من أقبل عليه وتاب إليه ، ومن فعل ذلك بصدق كان كمن لا ذنب عليه[3] .

وعليه فإن التوبة من الذنب كما قال الشيخ الغزالي[4] هي أول مراحل الطريق إلى الله تعالى ، والمدخل المفضي إليه ، وهي طهر للمسلم مما يقترفه من الآثام ، ما لم تكن هذه الآثام بسائق الاستكبار والتعالي على الله تعالى ، فإن كانت كذلك فإن الله تعالى لا يرزق بها من كان أمره كذلك ، كيف وهو القائل : ((**سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**[5]))[6] ، وإنما التوبة التي تحضى بالقبول عند الله تعالى هي التي تكون من ذنب ساق إليه ضعف بشري ، وطغيان أهواء استبدت بصاحبها ، مع اعتراف بذلك ، ويسير على الله أن يلهمه الندم و التوبة .

---

[1]- سورة الشورى ، الآية 23.

[2]- البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ص 34.

[3]- المصدر نفسه ، ص 218.

[4]- محمد الغزالي ، الجانب العاطفي من الإسلام ، ط1 ، بيروت : دار السراج ، 2010م ، ص 157.

[5]- سورة الأعراف ، الآية 146.

[6]- البوطي ، المصدر نفسه ، ص 219.

1-ب- الورع : ولأرباب القلوب حديث طويل عن الورع في كتبهم ، فقد ذكر الإمام القشيري أن أبا بكر الصديق ـــ رضي الله عنه ـــ كان يقول : ((كنا ندع سبعين بابا من الحلال ، مخافة أن نقع في باب واحد من الحرام [1])) ، ذلك أن أهل التقوى وقافون عند حدود الله ، هـــيابون أن يلموا بشيء يسقط مروءتهم ، ويغضب عليهم مولاهم [2] ، وكثيرة هي أقوال أهل العلم متقدمين ومتأخرين في هذا الباب ، فمنهم من قال بالورع عن الشبهات ، ومنهم من قال بالورع عما يحيك في الصدر إلخ... وفي خضم هذه الفهوم يقدم لنا البوطي مفهوما للورع واضح ودقيق ، وذلك لأن موضوعه يثير كثيرا من الإشكالات في بعض العقول التي لم تفقه حقيقته بعد ، فيرونه إعراضا عن الدنيا وتركا لها ، وبالتالي فهو زج بالمسلم في عالم التخلف ، وتصويبا لهذا الخطأ يرى البوطي أن الورع هو أن يكتـــفي المسلم بأدنى درجات الكفاية ، فيقتصر منها على ضرورات المعيشة ، وهذا مشروع في حق نفـــسه ، غير مشروع في حق من كلّفه الشرع بالإنفاق عليهم ، فهؤلاء يجب الإنفاق عليهم والعناية بهم في حدود المتعارف عليه[3]، وهذا المعنى يبين لنا حدود التكسب ، فموقع المال من تملك الإنسان له قلة وكثرة ، كموقع الطعام من تناوله قلة وكثرة ، فهذا الأخير إن زاد عن الحاجة ، تحول من نافع للجسم إلى ضار له ،وكذلك أمر المال إن زاد على حد الحاجة له تحول في نفس مالكه إلى مصدر طغيان واستعلاء ، وبيان البوطي لهذا الأمر مستلهم من قول ابن عطاء الله السكندري : ((من تمام النعمة عليك أن يرزقك ما يكفيك ويمنعك ما يطغيك))[4] .

فإذا كان الورع في المفهوم المتعارف عليه ، هو ترك كثير من المباح ، والترفع عليه خشية أن يقود التوسع في استعماله إلى ملامسة المحضور والوقوع فيه ،فإن البوطي يمدنا بفهم آخر ، وهو أن مقياس الكفاية التي تفيد ولا تضر من المال ، ليست هي كثرته ولا قلته، وإنما هي حال الشخص المالك،

---

[1]ـــ أبو هوازن القشيري ، الرسالة البيانية (مرجع سابق) ، ص 53.

[2]ـــ الغزالي ، الجانب العاطفي من الإسلام (مرجع سابق) ، ص 175.

[3]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج4 ، ص183.

[4]ـــ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

وكم في الناس من متّعهم الله بوفرة مال وسعة رزق ، فما كان لهم ذلك إلا عونا على التقرب من الله والتحقق بالعبودية له[1] ، أي إن مدار الإشكال على كيفية توظيف المال ، لا على اكتسابه والتوسع فيه .

والبوطي لا يستقي هذا الفهم من الخيال ، بل هو موروث عن سلف هذه الأمة ، وفي مقدمتهم الصحابة ــ رضي الله عنهم ــ وعدد لنا منهم البوطي عبد الرحمان بن عوف ، وعثمان بن عفان، والعباس عم النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ وكلهم لم يزدهم الغنى إلا قربا من الله ، وبعدا عن شهوات الدنيا ، وكذلك أتباعهم من أمثال عبد الله بن المبارك ، والذي كان مضرب الأمثال في الغنى ولكن ما أثر عنه أن غناه كان شغلا له عن الله ، بل إنه كان له مطية إلى بلوغ درجات العارفين الربانيين[2].

وبيان البوطي لهذه المعاني المتعلقة بالورع ، تجعلنا نفهم أن الورع لا يخرج إلا من قلب عارف بالله لم يعد يستهويه منها طمع ،ولا تستميله أهواء ،فإذا كان كذلك حاله كان حظه من الدنيا لا يتجاوز يديه ، ولا مطمع للأهواء والأغراض في أن تلج قلبه .

ـ أ ـ ج ـ الزهد :وهو من أهم المقامات ، لأن حب الدنيا والتعلق بها رأس كل خطيئة ، ومن استحوذت الدنيا على قلبه لم يستقم له أمر .

والزهد ــ كما يبينه البوطي ــ الإعراض عن كل ما عدا الله عز وجل ، وعزوف النفس عن كل ما سواه تعالى ، من جاه ومال وأهل وولد وسائر متع الدنيا[3] ، على نحو ما بينه الغزالي بقوله: ((انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه))[4].

---

[1]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ج4 ، ص 184.

[2]ــ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[3]ــ المصدر نفسه ، ج 1 ، ص543.

[4]ـ أبو حامد الغزالي ، إحياء علوم الدين (مرجع سابق) ، ج4 ، ص 316.

وواضح من كلام الغزالي أن انصراف الرغبة لا يكـــون إلا لله تعـــالى ، وتلـــك هـــي حقيقـــة الزهد[1] ، ولكن هل الزهد حينها هو الابتعاد عن الدنيا بحيث لا يأخـــذ المســـلم منـــها قلـــيلا ولا كثيرا ؟ وهل المطلوب في الشرع أن يكون أمر المسلم كذلك ؟ وكيف مـــع هـــذا نبلـــغ مراتـــب اليد العليا التي حثنا الإســـلام على بلوغها ؟

وعن مثل هذه الإشكالات التي تثقل كثيرا من العقول ، يجيبنا البوطي عن حقيقة الزهد، ويبين المراد بالعزوف عن الدنيا ، ذلك أن عزوف النفس عن الشيء لا يستلزم تركه والإبتعاد عنه ، وإنـــما هو عزوف عن حبه والتعلق به ، وجعله غاية مرجوة ، والمسلم يستخدم كل شؤون الدنيا التي يقبل عليها فيما قضى الله أن تستخدم فيه ، فهو كادح في سبيل تحصيل مستلزمات الحياة ، ولكـــنه غير مشدود برغائبه واهتماماته نحوها ، وبصورة أدق تطهـــير القلب من حب الدنيا وما حوت من متـــاع ، ولا حرج إذا طهر القلب منها ومن أهوائها ومن التعـــلق بها ، أن يمارســـها المسلم ويستخـــدمها لمنافعه العاجلة والآجلة [2]

وعليه فإن الزهد فراغ القلب من كل ما سوى الله تعالى ، والنظر إلى الدنيا على أنها مطية الآخرة وبالتالي أي حركة فيها وأي فعالية في شعابها إنما هو سبيل من سبل التوجه إلى الله ، وذلك لا يحدث بالطبع إلا بعد تزكية النفس وتطهير القلب ، والتحرر من سلطان الأهواء .

ويبين البوطي من وجهة أخرى أن التحرر من أسر الدنيا وأهوائها ، العزوف عن لذّاتها لا ينبع إلا من قلب توقدت فيه شعلة الإيمان ، وبرق في حناياه ذلك النور الرباني ،وحينها تعزف النفس عن الدنيا ، لما ترى من ضآلة شأنها ، ويفرغ القلب من التوجـــه إلى الدنيا والتعلق بها بعد شـــروق محبة الذات الإلهية فيه[3] ، وواضح أن البوطي هنا يصل بين الحب والزهد ، إذ لا يزهد القلب فيما سوى الله إلا إذا امتلأ بحبه .

1- لقد أثرى الإمام الغزالي ـــ رحمة الله عليه ـــ موضوع الزهد وفصّل القول فيه ، وبين درجاته ، ينظر الإحياء ، ج 4، ص 316.

[2]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج 1 ، ص 544.

[3]ـــ المصدر نفسه ، ج2 ، ص53.

ومن باب زيادة الإيضاح ، يبين لنا البوطي السبيل الذي إذا سلكه المسلم انتهى به إلى معرفة حقيقة الدنيا ، مما يؤهله إلى الزهد فيها ، وإلى الترفع عن أهوائها ، وهذا السبيل يكمن في أن يوجه المسلم نظره وآماله وأفكاره على الآتي من الزمن ، وينظر بتأمل من خلال ذلك إلى المصير الذي هو مقبل عليه ، ولا يحبس نظره في الحاضر من الزمن ، فإن هو مدّ نظره إلى المستقبل الذي يحوي المصير الذي سيؤول إليه ، صغرت في عينه المطامع ، وانتفى من قلبه حب الدنيا ، إلا ما كان من ذلك سبيلا إلى تلك الغاية والمآل[1].

وعليه فإن الزهد في الدنيا لا يقتضي عزلها والإبتعاد عنها ، كما يتوهمه كثير من الناس ، ممن يعتقدون أن قلوبهم لا تصفو من الأكدار ،وأن نفوسهم لا تخلو من الأغيار ،إلا باعتزال الحياة والبعد عن الناس ، وأن ممارسة العبودية لله لا يتم كما هو مطلوب إلا بعزل الناس والإنفصال عن الشواغل ، والتجرد من كل ألوان النعيم ، وهذا ما يكشف لنا البوطي عن حقـــيقته ، مبينا أنه لو صح أن يكون سبـــيل العبادة والزهد في الدنيا ((الإستيحاش من كل شيء تراه العين من مظاهر هذه الحياة ، ومن ثمة الفرار منه والإبتعاد عنه ، إذن لعادت الأرض خرابا ، ليس فيها عرق أخضر ، ولا بناء لساكن ، ولا رزق يعد لطاعم ، ولتحولت أرض المسلمين إلى مرتع للكافرين من أعداء الله ، وعباده المؤمنين به دون أن يكون في المسلمين جند يذودون عنها ، ولا حاكم يرعى شؤونها ومصالحها))[2] ، وهذا التفسير والبيان الذي يمدنا به البوطي عماده القرآن الكريم قبل أي شيء آخر، يقول تعالى : ((**هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**[3])) ويقول في آية أخرى : ((**هُوَ ٱلذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ**[4])) ،

---

[1]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) مجلد 2 ، ص 340.

[2]ــ المصدر نفسه ، ج3 ، ص 15و16.

[3]ــ سورة هود ، الآية60.

[4]ــ سورة الملك ، الآية 16.

وقال غير ممانع من الزينة : ((**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ** الآية[4]))[2] ، وفي هذا المقام يربط البوطي عمارة الأرض بالذكر ، أي إن إقبال المسلم على شواغل الحياة ، واستقباله لنعمها ،لا بد أن يكون مقرونا بذكر المنعم ،وأن تكون شواغل الدنيا عنده لونا من الطاعات التي تقربه إلى الله ، وتزهده في كل ما عداه ،وهو المراد بقوله تعالى :((**وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ** ﴿٥٦﴾[3])) ،وهذه الحقيقة يعبر عنها كذلك ابن عطاء الله السكندري بقوله : ((إنما يأسرك من الدنيا تعلقك بها ، لا تعاملك معها ، والمطلوب منك أن تتعامل معها ، لا أن تتعلق بها[4])).

ومما سبق يمكننا أن نخلص إلى أن البوطي أعطى مفهوما جديدا للزهد ، وهو زهد القلب، وهو لا يتعارض مع ولوج غمار الحياة ، ولا يمانع من التعامل معها ، وإنما يمانع من جعلها غاية في ذاتها ويمانع من حبها والتعلق بها ، وفي هذا يقول : ((إنه يتعامل مع الدنيا بكل ما فيها على أنها استراحة في الطريق إلى غاية ، وليست غاية في نهاية الطريق ، والمفروض ألا يوجد في الإستراحة إلا ما يعين المسافر لبلوغ غايته ، لا أن يوجد فيها ما يغريه بالبقاء أو يزجه في يم من الغفلة والنسيان))[5] .

- **1** -د- **الصبر**: ويرى البوطي أن سدى التكاليف الإلهية ولحمتها تتألف من الصبر والشكر ، وبهما تتحقق العبودية الطوعية لله تعالى[6]، والصبر فيما نفهم قرين الشكر ،فنجد

---

[1]ـ سورة الأعراف ، الآية 32.

[2]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ص 16.

[3]ـ سورة الذاريات ، الآية 56.

[4]ـ البوطي ، المصدر نفسه ، ص 17.

[5]ـ المصدر نفسه ، ج4 ، ص 213.

[6]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، ص 336.

أن الغزالي يقول : ((الإيمان نصفان نصف صبر ، ونصف شكر .. وكل جهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا نصفي الإيمان))[1]. ويوضح البوطي وجه العلاقة بين الصبر والشكر، وهي أن مادة الصبر هي المصائب والشدائد ، ومادة الشكر هي النعم والرغائب ،وحياة التكليف مزيجا من هذا وذاك [2].

ولكن لا ينبغي أن نفهم أن الشكر مقرونا بأن يكون على النعم فحسب ، بل قد يكون الشكر على المكاره ، والله تعالى هو وحده الذي لا يحمد على مكروه سواه ، ذلك أن الصابر يتلقى المكاره بالقبول ،بل ويراها من نعم الله عليه ، فهو صابر عليها ، راض بها ، شاكر عليها ، فلربما ساقت إليه من الحكم ما لم تسوقه إليه ظاهر النعم .

وكثيرة هي الآيات التي تطرقت إلى الصبر،وبشرت الصابرين ،منها قوله تعالى :((**لَتُبْلَوُن فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَذىً كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلأُمُورِ ﴿١٨٦﴾**[3])) ، ومنها قوله تعالى :((**وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلأَمْوَٰلِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾**[4])) .

ويبين البوطي أن الصبر من الإيمان ، وغير المؤمن لا يعرف شيئا اسمه الصبر ، وذلك لأن الصبر هو تعلق الأمل بخير متوقع ، فيجعل صاحبه ثابتا في الشدائد ، متجلدا ساعة المكاره ، وكله أمل وإيمان بالجزاء الذي ينتظره ، والبشرى التي وعده ربه بها ، فإن لم يكن هناك

1– الغزالي ، إحياء علوم الدين (مرجع سابق) ، ج4 ، ص39، ويبدوا أن هذا القول إنما هو لعلي بن أبي طالب في أصله ، ينظر زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق (مرجع سابق) ، ج2 ، ص 122.

2– البوطي ، المصدر السابق ، الصفحة نفسها ، وينظر : ج4 ، ص 328.

3– سورة آل عمران ، الآية 186.

4– سورة البقرة ، الآية 154.

إيمان ، فلا وجود للصبر ولا معنى له ، وإنما هو الخضوع للحسرة والعذاب الذي يجبر عليه صاحبه ، وكثيرا ما يؤدي به إلى أن ينفجر أو يختنق[1] ، ولذلك نقف على النداء الإلهي في القرآن الكريم لا يتوجه به إلا إلى المؤمنين ((**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَاتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾**[2])).

وإذا كان البوطي في المقام السابق يربط بين الصبر والشكر ــ على نحو ما تبين ــ ، فإنه في مقام آخر يربط بين الصبر والتوبة ، ويرى أن الصبر من مستلزمات التوبة ، إذ إن الإنسان قبل توبته إنما كان متبعا لأهوائه ، ولا حاجة له إلى الصبر ،وعندما يتوب ويبدأ رحلته إلى الله ،يأتي مكمن الحاجة إلى الصبر ، صبر على تحمل المشاق ،وصبر على البعد عن الأهواء والشهوات [3] ،أو كما قيل : صبر على ما تكره ، وصبر على ما تحب ، أو صبر على الطاعة ، وصبر على المعصية ، وهو ما عبّر عنه الغزالي بقوله :((الصبر هو ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحق بالصابرين ، وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة و لم يصبر على دفعها ، التحق بأتباع الشياطين))[4] .

ويفهم من كلام الغزالي أن الصابر قد يعتريه من الشدائد ما يجعله لا يتماسك ، وقد ينهار ويتخاذل وينقلب إلى أتباع الشياطين ، وما أكثر من يعبدون الله على حرف ،بل لا يخلو منهم زمان ولا مكان وفي كلام الشيخ البوطي ما يزيل مخاوف الصابر ، فقد بين أن الصابر لا يعتمد في صبره على نفسه ، ولا يركن إليها ، بل إنه في ذلك مستعينا بمولاه ، متبرئا من حوله وقوته ، كيف وهو المتحقق بعبارة نفي الذات ، وإثبات القوة والحول لمولاه

---

[1]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، ص 345.

[2]ــ سورة آل عمران ، الآية **200**.

[3]ــ البوطي ، المصدر نفسه ، ص 553.

[4]ــ أبو حامد الغزالي ، الإحياء (مرجع سابق) ، ج4 ، ص 93.

تعالى ،((لا حول ولا قوة إلا بالله))[1] ، وهو مع ذلك كثير الدعاء والإلتجاء والإنكسار ، وهذا ما يجعل مرارة الصبر أنس وحلاوة ، والقرآن الكريم قرنه بأعظم عبادة ، وأعظم ذكر ، وهو الصلاة ، حيث قال : ((**وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ** ﴿٤٥﴾[2])) .

2-د- الرضا : ومن مدارج السالكين على الطريق ، والتي تطرق إليها البوطي بالشرح والبيان ، مقام الرضا ، حيث يرى أن الرضا من أهم ثمرات الصبر ، وذلك عندما يداوم عليه المؤمن ويلزمه و يثابر عليه[3].

ثم يبين لنا البوطي سبيل بلوغ الرضا ، وهو علم الصابر بأجره الذي وعده الله به ((**إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ** ﴿١٠﴾[4]))،وعلمه أن الله يحب الصابرين ((**وَاللهيُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ** ﴿١٤٦﴾[5])) وحب الله لعبده يوهج في قلب العبد حب الله ، فإذا أحب العبد مولاه، فاض قلبه بالرضا عن كل ما يأتيه به مولاه ، وينتقل العبد على إثر ذلك من الصبر إلى الرضا[6] ، ومما يزيد الصورة وضوحا أن المحب يحب التعرض لآلام محبوبه ، وكثيرا ما يلذ يلذ بهذه الآلام ، وهذا موجود في الحب الأرضي بين الخلائق ، ولا نحب أن نعرض لشواهد من أقوال الشعراء لأنها تصرفنا عن المطلوب ، فماذا إذا تعلق القلب بحب الله تعالى.

---

[1]- البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ص 554.

[2]- سورة البقرة ، الآية 45 .

[3]- البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج 1 ، ص 554.

[4]- سورة الزمر ، الآية 10.

[5]- سورة آل عمران ، آية 146.

[6]- البوطي ، المصدر نفسه ، ص 555.

ومقام الرضا يحتاج إلى رياضات شديدة ، وإلى تزكيـــة للـــنفس وتطهـــير للقلـــب ، وتقويـــة للروح بالذكر إلى حد بلوغ المسلم درجة وحدة الشهود . ولـــذلك يجعلـــه أهـــل العلـــم فرعـــا عن الصبر .

ومن أهم صور الرضا التي يذكرها البوطي ، الرضا بمـــا قضـــى الله بـــه ، وذلـــك لأن قضـــاء الله لا ينفك عن عدله تعالى ، ومن ثمة تبدو ضـــرورة الرضـــا بقضـــاء الله مـــا دام لا ريـــب في إيمانه بأن الله عادل وحكيم ، وأن ما يظهر لنا من كوارث ومصـــائب فإننـــا لا نـــدرك الحكمـــة منها ، وكثيرا ما تكون خفيـــة كمـــا قـــال تعـــالى : ((**وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢١٦﴾** [1]))[2] ، بـــل لعـــل مـــا يبدو في ظاهره مصيبة يخشاها الناس ، هو في حقيقته خير خفـــي ، ولعـــل في المصـــائب تربيـــة للنفس وعودة إلى الله بعد شرود عنه ، ولعلها تنبيـــه للغـــافلين وتحـــذير للمتكـــبرين وتذكـــير للناسين ، ومن ثمة وجب الرضا عن الله في كل الأحوال .

2 – هـ – التوكل: يستقي لنا البوطي حقيقة التوكل ومعناه وكيفيـــة تطبيقـــه ، مـــن قـــول ابن عطاء الله:((ما توقف مطلب أنت طالبه بربك ، ولا تيسر مطلـــب أنـــت طالبـــه بنفســـك)) مبينا لنا أن من عقيدتنا أنه لا يخيب مؤمن ســـاع إلى مطلـــب وهـــو متوكـــل علـــى مـــولاه ، مستعينا به ، متبرئا من أوهام قوته وحوله[3] ويستدل علـــى ذلـــك بآيـــة الإفتقـــار إلى الله تعـــالى ((**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿١٥﴾** [4])) ،ومعلـــوم أن كلمـــة الفقراء هنا وردت عامة شاملة لكل ما يحتاجه الإنسان ،مـــن مـــال ومـــدارك ومعرفـــة وإبـــداع وكل ما تقوم عليه الحياة ، كما هو معلوم أن أجمع كلـــمة عبّـــرت عـــن هـــذه الحقيقـــة ممـــا

---

[1]ـ سورة البقرة ، الآية 214.

[2]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، ص562.

[3]ـ المصدر نفسه ، ص349.

[4]ـ سورة فاطر ، الآية 15.

علمتنا السنة هي كلمة : لا حول ولا قوة إلا بالله[1] ، وهو نفسه ما بينه الغزالي من أنه لا فاعلية إلا لله ، فمن اعتقد اعتقادا جازما بقدرة الله على كفاية العباد ، وعنايته وعطفه ورحمته بعباده ، وأنه ليس وراء عنايته عناية ، ولا بعد عطفه ورحمته عطف ورحمة ، فقد اتكل قلبه على الله وحده ، و لم يلتفت إلى غيره ، ولا إلى نفسه ولا إلى حوله وقوته[2] .

ويسوق لنا البوطي جملة من الأدلة الكاشفة عن هذه الحقيقة ،منه قوله ــ صلى الله عليه وسلم ــ: ((المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، إحرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا ، ولكن قل : قدّر الله وما شاء فعل[3]))[4] ، ووجه الدلالة في الحديث إنما هو في قوله :((استعن بالله ولا تعجز)) ، أي إن الإستعانة بالله والتوكل عليه خطوة مقدمة على الشروع في أي عمل ، وهي سر النجاح فيه ، ولذلك ــ كما قال البوطي ــ فإن أي نشاط سلوكي إنما هو ثمرة للإستعانة بالله عز وجل[5].

كما يبين البوطي أنه لما كانت الفعالية لله وحده ، وأن حقيقة العقيدة الإسلامية وحقيقة الإيمان الصحيح مبناهما على التجرد من الحول والقوة ، ومن تحلى بهذا الإيمان فقد أحس بالإفتقار إلى الله تعالى ، وحمله ذلك على التوكل عليه والإستعانة به في سائر ما يقبل عليه ، وقاده ــ ذلك أيضا ــ إلى المداومة على ذكره تعالى ومراقبته ، وذلك هو

---

[1]ــ البوطي ، المصدر السابق ، ص 350.

[2]ــ الغزالي ، الإحياء (مرجع سابق) ، ج4 ، ص 379

[3]ــ رواه مسلم في باب القدر والأمر بالقوة ، ج4 ، ص2052 ، حديث رقم2664.

[4]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ،ص351.

[5]ــ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

الفرار إليه تعالى الذي أمرنا به إذ قال : ((فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝[1]))[2]

وما يزيد المسألة وضوحا قول ابن عطاء الله السكندري :((لا ترفعن إلى غيره حاجة هو موردها عليك ، فكيف يرفع غيره إلى ما كان هو له واضعا ؟ من لا يستطيع أن يرفع حاجة عن نفسه فكيف يستطيع أن يكون لها من غيره رافعا)) ، فالعارف بالله إذا نزلت به حاجة ، أو طافت به مشكلة ، ينظر أولا إلى مصدرها ، من الذي ابتلاه بها ؟ من الذي ساقها إليه ؟ فإذا علم الفاعل الحقيقي ، وأدرك أنه تعالى هو الذي أنزل به البلاء ، وابتلاه به ، توجه إليه هو دون غيره ، إذ الذي أنزله هو الوحيد القادر على رفعه عنه ، إذ لا يعقل أن ينزل البلاء من الله تعالى ثم يرفعه بدلا عنه غيره[3] ، وهنا يظهر توجه الإرادة إلى الله تعالى دون سواه ، وتعلق القلب به تعالى وحده ، وتلك هي حقيقة التوكل في قلب السائر إلى الله ، لا يلتفت إلا إلى قوة الله وحوله ، ولا يستعين إلا به ، ولا يتوكل إلا عليه .

والتوكل على الله تعالى نابع من اليقين به ، وهذا اليقين تتفاوت درجاته على قدر قرب العبد من ربه، كما بيّن الإمام الغزالي[4].

---

[1]ــ سورة الذاريات ، الآية 50.

[2]ــ البوطي ، المصدر نفسه ، ص 354.

[3]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، ص 478.

3 ــ لقد فصل الإمام الغزالي القول في درجات اليقين بالله ، ومن ثمة درجات توكل القلب عليه تعالى ، من خلال أمثلة اتضحت معها صورة التوكل وحقيقته بما لا يدع مجالا للبس ولا غموض ، وأدنى هذه الدرجات ، درجة من كانت حالته كحالة من يوكل شخصا على نفسه مع كامل ثقته به ، وتوفرت فيه شروط أربعة هي : منتهى الهداية ، منتهى القوة ، منتهى الفصاحة ، منتهى الشفقة ، والدرجة الوسطى يشبه لنا فيها حال المتوكل على الله بحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع إلى أحد سواها ولا يعتمد إلا عليها ، والدرجة العليا التي تمثل أقوى درجات اليقين ، هي أن يكون حال العبد مع الله في حركاته وسكناته كحال الميت بين يدي الغاسل ، لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه في يد مولاه كالميت في يدي الغاسل ، تحركه يد القدرة الإلهية كما تحرك يد الغاسل الميت ، وهذا منتهى التوكل واللجوء إلى الله ، وهذا هو نفي الأنا ، ينظر : الغزالي ، الإحياء ،ج4 ، ص 381.

وعليه فقد تبين أن التوكل هو توجه القلب إلى الله ، وتعلقه بـه دون أحـد مـن خلقـه ، وتسليم الإرادة له تعالى ، والتجرد من الحول والقوة ، لكن هـل ذلـك يعـني تـرك الأسـباب والإستغناء عنها كلية ؟

يبين لنا البوطي أن حقيقة التوكل في قلب العـارف الحقيقـي بـالله ، لا تتنـافى مـع تقـديم الأسباب ، بل لا يحق له ترك الحركة والأسباب ، إذ من الواجبـات الـتي أمـر الله تعـالى بهـا عبده ، العمل بالأسباب كاملة غير منقوصة ، وأن العلاقـة بـين التوكـل والأسـباب علاقـة انسجام ، فلا تكتمل صورة التوكل إلا بالإقبال على الأسباب وممارسة الحركة في الحياة[1] .

والعاقل البصير بحقيقة العقيدة الإسلامية ، يعلم أن إقبال المسـلم علـى عـالم الأسـباب جـزء من التوكل ، لأنه يعتقد أن الأسباب نفسها من الله ، وأنـه تعـالى هـو الـذي صـرفها إليـه ويسرها له ، فالمتوكل على الله ينطلق من اليقين بالله ، ويتعامل مع ما هيـأ الله لـه وسـخر مـن الأسباب ، مع علمه التام أن القدرة التي يبطش بها ، والعقل الـذي يفكـر بـه ، وسـائر سـعيه إنما هو من الله وحده .

والإعتماد على الأسباب مجردة عن الإستعانة بـالله شـرك ممقـوت ، والإسـتعانة بـالله مـع التقاعد عن الأسباب إدعاء مذموم وتواكل منبوذ ، إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة .

2 – و– المحبة : ويرى البوطي أن حب الله تعالى شعور خفي يهيمن على القلب ، ولكنه لا بد أن ينعكس على ظاهر السلوك والتصرفات ، وعليه فإن الحب يقتضي الالتزام والإنضباط بما أمر به المحبوب ونهى عنه ، فإن لم يثمر الحب مطلق الطاعة فإنه زعم لا طائل من ورائه [2] ، وهذا ما عليه كبار الصوفية من التلازم بين الحب والطاعة ، قال الإمام الغزالي : ((وحب المؤمنين لله إتباعهم

---

[1]– البوطي ، المصدر السابق ، ص 360.

[2]– المصدر السابق ، ج1 ، ص 381.

لأمـــره ، وإيثار طاعته ، وابتغاء مرضاته))[1] ، وهو نفسه ما نقف عليه في كلام ابن عربي[2] ، بل إن مسألة الحب الإلهي من أكبر أسماء المعاني التي شغلت الصوفية ، أما الزعم بأنهم ابتدأوا حيـــاتهم بالحب الحسي فهو قول هراء [3] ، فلم يقل أحد من الباحثين أن الصوفية معصومون من الحب الحسي، ولكنهم قوم لا يقفون عند المحسوس ، وإنما يرون فيه صورة الخالق المصور المبدع ، بل إن البوطي نفسه يؤكد لنا هذه الحقيقة ، بحيث يرى أن حب الله تعالى لا يستلزم العصمة ولا الكمال ، فربما يندفع المحب إلى الإنضباط بما أمره به محبوبه ونهاه عنه ، ثم يتعثر في ثنايا سيره دون بلوغ مداه ، وذلك لأنه مخلوق ضعيف ، ومركب من وهن ، تتسلط عليه الأهواء والغرائز ، وتحول دون بلوغ غايته ومداه ، وجل من لا يخطأ [4] ، ولا نتصور أي معنى للتوبة إن لم يكن البشر خطائين .

غير أن هذا الكلام لا ينبغي أن يفهم منه أنه مـــدعاة إلى التســـاهل في الاســـتقامة ، بـــل إنـــه تنبيه إلى نقصان البشر ، وإلى أنهم خطّائين في الأصل .

ولذلك فإن حب الله تعالى لابد أن يقترن بالإقرار بالعجز أمامـــه تعـــالى ، والاعتـــراف بأنـــه هو الواحد القادر على حماية هذا الحب من أن تخدشه يـــد الأهـــواء ،أو تكـــدر صـــفوه ريـــاح الشهوات ،يقول البوطي مبينا الحكمة من ذلك : ((والحكمة هـــي أن يســـير العبـــد في طريـــق الوفاء بحقوق حبه لله عز وجل ،ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، حـــتى إذا اصـــطدم بجـــدار ضـــعفه وعجزه وبسلطان غريزته ، لزم جادة العبودية فشكا إلى الله عجزه ، وقدّم بـــين يـــدي مـــا قـــد كبـــل به من الغرائز والنقائص البشـــرية مشـــاعر حيائـــه وخجلـــه مـــن الله عـــز وجـــل ، إذ

---

[1]ـ أبو حامد الغزالي ، مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علاّم الغيوب ، ط1 ، بيروت : دار الكتب العلمية 1982م ، ص 37.

[2]ـ إبن عربي ، الفتوحات المكية (مرجع سابق) ، المجلد 2 ، ص 320.

[3]ـ ممن ذهب إلى ذلك زكي مبارك في كتابه التصوف الإسلامي ، ج 2 ، ص189.

[4]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ص 382.

يناجيه منتشيا بلواعج حبه ... فبهذا الذي شاءه الله عز وجل ، تمتزج نشوة الحب مع ذل العبودية لله عز وجل ، ولا يصلح حال العبد مع الرب إلا بهذا المزيج))[1].

والعلاقة التلازمية بين المحبة والإستقامة واضحة في القرآن الكريم ، في قوله تعالى : ((**قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١**[2]))

كما يرى البوطي كذلك أن قلب الإنسان وعاء مهيأ لحب الله تعالى ، وهذا من الفطرة التي فطره عليها ،ولا شيء يدنس المحبة الإلهية كمحبة الأغيار ،وعليه فإن المسلم مطالب بتنقية قلبه من الأغيار ، ومطالب بوضع كل شيء من المكونات في موضعه المناسب ، وهذا لا يتأتى إلا بالجهاد وبذل المجهود والصبر والمصابرة [3] ، وبهذا يتضح أن هذه المقامات التي يسلكها السائر إلى الله متكاملة ، بل هي أشبه ما تكون ببناء متراصف الجدران ، لو انهار منه جزء لانهار كله .

ويبين البوطي كذلك في موضع آخر أن الحب هو القائد الذي يسوق العارف بالله المؤمن به إلى الإقبال على الله ، وذلك لأن الله هو الذي يمد عبده بلطائف الإحسان التي تغمر حياته ، فالواجب أن تكون لطائف الإحسان في قلب العارف بالله معين يفيض بحب المنعم تعالى ، ولكن حال كثير من الخلق عكس ما تبين ، إن اللطائف والنعم كثيرا ما تلهب الغرائز والشهوات ، ولا يرد مثل هؤلاء إلى الإستقامة إلاّ وقع الشدائد ، فيتحببون إلى الله بالعبادة والدعاء والتضرع[4] .

---

[1]ـ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[2]ـ سورة آل عمران ، الآية 31.

[3]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ص 556.

[4]ـ المصدر نفسه ، ج2 ، ص 146.

كذلك من ثمرات الحب في سلوك العارفين ، الذهول عن النفس ، والتبري من حظوظها فكلما زاد الحب الإلهي في قلب العارف كلما غابت حظوظ نفسه ، وكلما اتجه القصد إلى القرب من الله ونيل مرضاته[1] ، وكان كل حب في قلبه عائد إلى حب الله ، نابع منه ، وهو ما أبان عنه الـــغزالي بقوله : ((وحب الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ محمود لأنه عين حب الله تعالى ، وكذلك حب العلماء والأتقياء ، لأن محبوب المحبوب محبوب ، والرسول محبوب المحبوب ، ومحب المحبوب محبوب ، وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل ، فلا يتجاوزه إلى غيره ، فلا محبوب بالحقيقة عند ذوي البصائر إلا الله تعالى ، ولا مستحق للمحبة سواه))[2].

ومن آثار المحبة الإلهية في استقامة السلوك واستقامة واقع المسلم ، وهي آثار لا يملك قرار العقل أن يخلّف مثلها في مجرى حياة العبد ، من هذه الآثار مثال من واقع الحياة يبين لنا البوطي من خلالـــه قوة سلطان الحب الإلهي ، وكيف يسوق العبد إلى محبوبه سوقا ، فقبل أعوام أصدرت الولايات المتحدة الأمريكية قانونا يقضي بمنع شرب الخمر وتعاطيه ،وقبل قرون نزل البيان الإلهي في المديـــنة المنورة حاكما بتحريم الخمر ، فأما في أمريكا فلم تمض وقت طويل حتى بدأت الرؤوس تتطوح من ألم الحرمان من مألوف ، فلم يمض زمن طويل وإذا بالنفوس تضعف ، والقـــرار ينسخ ،وأما في المدينة المنورة فما إن بلغهم النداء الرباني : ((**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾**[3])) حتى حطمت أقداحهم ، وأصبح الخمر رجـــس تعافه النفس ، فما الفرق بين قرار وقرار ؟ إنه فارق واحد ، القرار الأول فكري غالبه الهوى فغلبه ،والقرار الثاني سلوك أفرزته المهابة والتعظيم والحب[4] ،وما قيل عن مثال الخمر، ينسحب على كافة أمثلة الحياة وحب الله وحب الشهوات لا يجتمعان ، وكل قلب أشرك في حبه بالله شيئا غيره

---

[1]ـ المصدر نفسه ، ص 274.

[2]ـ الغزالي ، الإحياء (مرجع سابق) ، ج4 ، ص437.

[3]ـ سورة المائدة ، الآية 92.

[4]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج4 ، ص 12.

فهو قلب كاذب ، كما قال إبن عطاء الله السكندري : ((كما لا يحب العمل المشترك ، كذلك لا يحب القلب المشترك)) ، وكل قلب تزاحمت فيه محبة الأغيار فهو قلب أبعد ما يكون عن الله وإن زعم حبه ،والإيمان لا يكون في القلب كما هو مطلوب من العبد ،إلا إذا كان الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما ، وقد بين الله ذلك في أكثر من موضع ، منها قوله تعالى : ((**وَالذِينءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلهِۗ**[1]))[2] .

ومما تطرق البوطي إلى بيانه ــ فيما يتعلق بالحب الإلهي ــ أن الحب هو الروح التي ينبغي أن تسري في معرفة الله والإيمان به ، بل إن القلب لا يمكن له أن يتعرف على الله إلا من باب حبه ، وكل معرفة لله لا تتوج بحبه فإنما هي كذب ودعوى لا أصل لها ، وذلك لأن العلاقة بين معرفة الله وحبه تلازمية[3] أي إن القلب لا يعرف الله حق المعرفة إلا بحبه ، وصورة هذا الحب هي الإستقامة على دينه أولا ، ثم أن يكون هذا الحب بريئا من الأغراض بعيدا عن طلب العوض ، وإلا فإنه وهم وزعم .

وكثيرا ما نقف على هذا الحب في حياة العارفين ، أحبوا الله فأثمر هذا الحب في قلوبهم مطلق الطاعة، على نحو ما قيل :

أتعصي الإله وتزعم حبه إن المحب لمن يحب مطيع .

فقد أحبوا الله لذاته ، وما أرادوا بهذا الحب جزاء ولا عوضا ، وممن تمثل هذا الحب رابعة العدوية في قولها ((اللهم إن كنت أعبدك طمعا في جنتك فاحرمني جنتك ، وإن كنت أعبدك خوفا من نارك

---

[1]ــ سورة البقرة ، آية 164.

[2]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ص 16.

[3]ــ المصدر نفسه ، ص 316.

فأدخلني نارك ، وإن كنت أعبدك لوجهك فلا تحرمني وجهك)) ، وهو قول يحمل كل معاني العبودية وأسمى صور الحب الإلهي [1].

2- التحقق بالأحوال :

لقد تطرق العلامة البوطي إلى ما يعرف عند الصوفية بالأحوال ،وتعرض إلى شرحها وبيان معناها وذلك بأسلوب سهل على القاريء فهمه و إدراك معناه ، معضدا هذا المعنى بالوحي الكريم ، وذلك للدلالة على أصالة هذه المصطلحات ـــ المتداولة عند القوم ـــ من حيث معناها ، وإن كانت حادثة من حيث مبناها ، والعبرة دائما في مثل هذه المصطلحات بالمقاصد والمعاني لا بالألفاظ والمباني ، ومن هذه المصطلحات :

- **2- أ - القبض والبسط**: فأما حديث البوطي عن القبض فقد جاء في سياق شرحه لحكم ابن عطاء الله السكندري ، يقول السكندري: ((قبضك بحيث لا يبقيك مع البسط وبسطك بحيث لا يتركك مع القبض، وأخرجك عنهما كي لا تكون لشيء دونه)) ، ذلك أن لله تعالى صفات دالة على سطـــوته وعقابه وجبروته ، دلت عليها بعض أسماءه تعالى مثل : القهار ، القوي ، شديد العقاب إلخ... ،وهي مذكورة في مثل قوله تعالى : ((**سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ** ۝٣١[2])) ، وقوله كذلك : ((**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ** ۝١٠٢[3])) وغيرها في القرآن كثير ، فهذه المعاني الصادرة عن مثل هذه الآيات عندما تسيطر على مشاعر العبد ، لا شك

4ـــ يبين البوطي أن هذه هي الصورة الحقيقية لمحبة الله تعالى ، والتي تحلى بها سيدنا محمدٌ ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ، فلقد كان يقوم الليل حتى تورمت قدماه ، ولما قالت له عائشة – رضي الله عنها – : أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال لها : أفلا أكون عبدا شكورا ؟ وهو ما يعني أن حب الله هو الذي كان يسوقه إلى أن يجهد نفسه في طاعته ، بغض النظر عن الجزاء ، ينظر : البوطي ، السلفية (مصدر سابق) ، ص 209.

[2]ـــ سورة الرحمان ، الآية 29.

[3]ـــ سورة هود ، الآية 102.

أنه يشتد خوفه ولا يتبين له من مصيره الذي هو مقبل عليه إلاّ العذاب والعقاب ،ولا سيما حينما يتذكر غفلته وتقصيره،وهذه المشاعر هي التي يطلق عليها القبض[1] ، بذلك فالقبض –كما قال ابن عجيبة – هو حالة من الحزن والضيق تعتري القلب ،وذلك لعدم تحصيل مطلوب أو لفوات مرغوب[2].

والقبض حالة تحدث في القلب نتيجة انصرافه إلى رؤية صفات الجلال ، ولذلك فهذه الحالة لا تلبث في القلب حتى يعقبها البسط والفرح بصفات الجمال ، ويذهب البوطي إلى أنهما قد يجتمعان في القلب ويتأثر بهما في الآن نفسه ، لأنه إذا هيمن على القلب البسط هيمن عليه الأمل وألهاه عن الخوف، وإذا انفرد فيه القبض تحطّم ويأس ، وهو السر في أن القرآن الكريم كان جامعا بين الوعد والوعيد ، وآية ذلك قوله تعالى : ((**نَبِّئْ عِبَادِيَ أَنِّيَ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلأَلِيمُ ۝**[3]))[4] .

وعلى العكس من ذلك يبين البوطي أن العبد أحيانا تهيمن عليه صفات جمال الله تعالى فلا يتذكر إلا رحمته وعفوه ومغفرته وعفوه ... ، فيجد من ذلك في قلبه إستبشارا وطمأنينة وفرحا[5] وهذه الحالة هي حالة البسط ، فالعبد فيها لا يرى إلا قرب حبيبه وشهود صفات جماله[6] .

وهذه المصطلحات متواجدة بكثرة في كتب القوم ، حيث تناولوها بالشرح مطولا ومن زوايا متعددة وهذا تدقيقا في الكشف عن ما يكون بينها من تداخل ،وذلك لأن القبض أقرب ما يكون إلى الخوف والبسط أقرب ما يكون إلى الرجاء إلخ... ، فقد ذكر إبن عجيبة أن العوام إذا غلب عليهم

---

[1]– البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج2 ، ص298.

[2]– أحمد بن عجيبة ، إيقاظ الهمم (مرجع سابق) ، ص 123.

[3]– سورة الحجر ، الآيتين 49و50.

[4]– البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج2 ، ص 299.

[5]– المصدر نفسه ، ص 297.

[6]– إبن عجيبة ، إيقاظ الهمم (مرجع سابق) ، 123.

الرجاء انبسطوا ، وإذا غلب عليهم القبض خافوا ، بينما الخـــواص إذا تجلى لهم بصفات الجمال انبســـطوا، وإذا تجلى لهم بصفات الجلال انقبضوا ، بينما خاصة الخاصة يستوي عندهم الجلال بالجمال ، وذلك لأنهم بالله ولله لا لشيء غيره[1].

غير أن هذا البيان يبقى متضمنا لشيء من الغموض ، وذلك لأننا لا نقف على أي فرق فيه بين العوام والخواص ، والله أعلم.

ويقف الإمام القشيري على فروق أخرى ، فيبين أن الخوف ما كان من متـــوقع في المستقبل ، بينما القبض ما كان من حاضر واقع ، وكذلك الرجاء ما كان من متوقع ، بينما البـــسط ما كـــان من عاجل موجود .

ويذهب الإمام الغزالي إلى أن البسط هو ثمرة الأنس[2].

أما الشيخ البوطي فإنه لا يكاد يلقي بالا لهذه الإختلافات التي تكثر في كتب الصوفية ، وإنما كان حديثه عنها منصرفا إلى كيفية تحلية القلب المسلم بهذه المصطلحات ، وإلى إنزالها إلى مستوى الجماهير وإلى تيسير مفهومها ومضمونها حتى يسهل التحلي بها في هذا العصر وتصعيد الجانب الروحي بها ،

---

[1]ـــ ابن عجيبة ، إيقاظ الهمم ، (مرجع سابق) ، الصفحة نفسها .

2ـــ لقد فصل الإمام الغزالي القول في هذه المصطلحات ودقق في شرحها ، وقدم لها شواهدا متنوعة ، حيث قال : ((اعلم أن الأنس إذا دام واستحكم و لم يشوشه قلق الشوق ، و لم ينغصه خوف التغير والحجاب ، فإنه يثمر نوعا من الإنبساط في الأقوال والأفعال والمناجات مع الله تعالى ، وقد يكون منكر الصورة لما فيه من الجراءة وقلة الهيبة ، ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ، وأما من لم يقم ذلك المقام ويتشبه بهم في الفعل والكلام فقد هلك به وأشرف على الكفر)) ونقل عن الجنيد قوله : أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء وهي كفر عند العامة ، وهم يجدون المزيد في أحوالهم بذلك ، وذلك يحتمل منهم ويليق بهم . ومن الأمثلة التي قدمها الغزالي عن البسط والأنس قول موسى ـــ عليه السلام ـــ في قوله تعالى : ((إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء)) ـــ الأعراف 155 ـــ ، وتسليم سيدنا عيسى ـــ عليه السلام ـــ في قوله تعالى : ((والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا)) ـــ مريم 33ـــ وهذا إنبساط ناجم عن مشاهدة اللطف في مقام الأنس ، على خلاف سيدنا يحيى فقد كان في مقام الهيبة والحياء ، فلم ينطق حتى أثنى الله عليه في قوله : ((وسلام عليه)) ـــ مريم 15ـــ ينظر : الغزالي ، الإحياء (مرجع سابق) ج 4 ، ص 492وما بعدها.

وبذلك فهو يرى أن حكم إبن عطاء الله لم يفرد بها فئة دون أخرى ، وإنما هي شاملة وهادفة إلى الوصول بالقلب إلى الله تعالى ، وهذا ما تقتضيه المحبة الصادقة لله تعالى[1].

وإذا كنا قد وقفنا على بيان الشيخ البوطي لكل من القبض والبسط ، فإننا نجده في مقام آخر يبين أن العارفين بالله لا يركنون إلى هذين الحالين ، وهم أشد فرارا منهما ، وذلك لأن البسط يتناسب مع حظوظ النفس ، وهو أقرب إلى البحث عن أسباب الطمأنينة ، وذلك ما يورث صاحبه الكسل عن القيام بالواجبات الشرعـــية المنوطة به ، بل وقد تفتح باب وساوس الشيطان ، ومن شأنها أيضا أن تخرج صاحبها عن حدود الأدب ، كما أن القـــبض قد يورث القنوط واليأس[2].

ويمكن أن نفهم من بيان البـــوطي لهذين الحالين أنه يقف موقف ابن عجيبة في أن العارف بالله أو خاصة الخاصة لا يركنون إلى مثل هذه الأحوال ، كما يذهب إلى ما ذهب إليه الغزالي من أن البسط قد يزج بالعبد خارج حدود الأدب مع الله ، وإن كان الغزالي يرى أنها حالة قسرية لا يؤخذ عليها ، ولكن البوطي يركز على نقطة أخرى ، كثيرة التكرار في كتاباته ، وهي أن العارف بالله متوجه القلب إلى الله وحده ، لا إلى هذه الحالات الشعورية ، والقلب إذا امتلأ بالله لم يبق فيه متّسع لهذه المشاعر .

– 2–ب–الهيبة و الأنس : بين البوطي أن الأنس بالله هـــو أثـــر مـــن الآثـــار الـــواردة في قوله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ : ((فإذا أحببته كنـــت سمعـــه الـــذي يســـمع بـــــه ،وبصـــره الذي يبصر بـــه ..[3]))

---

[1]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج2 ، ص301.

[2]ـــالمصدر نفسه ، ج2 ، ص301.

[3]ـــ من حديث البخاري في كتاب الرقاق ، باب التواضع ، مجلد4 ،ج7 ،ص190.

وهو أن يظل الصوفي في حالة إستبشار وفرح وبسط ، ولو اشتدت عليه الخطوب وطافت به المحن ، وذلك لأنه يرى في مشاغل الدنيا وحشته ، وذلك بمقدار أنسه بالله تعالى، إذ لا يأنس إلا به[1] .

والذي يمكن أن نفهمه من كلام البوطي أن الأنس هو نفسه البسط ، وإن كنا نعلم أن البوطي لا يعير اهتماما كبيرا للدلالة الصوفية لهذه المصطلحات بقدر ما يسعى إلى تبسيط ومعناها وإيصالها إلى القلب ولكن بعضهم أشار إلى تفرقة بسيطة بين الأنس والبسط ، وهي أن الأنس أتم من البسط[2]

ويرى البوطي كذلك أن الأنس هو مرتبة من مراتب حب الله تعالى،وفي ذلك يقول : ((ثم إن سر الوصول إليه تعالى إنما هو النور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن ، فإذا هو يتمتع بأنس المعرفة بعد وحشة الجهل))[3] ، وهو نفسه ما ذهب إليه الإمام الغزالي من أن الأنس ثمرة الحب ، وفي ذلك يقول : ((ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الإنفراد والخلوة ــ أي مع الله ــ كما حكي عن إبراهيم بن أدهم أنه نزل من الجبل ، فقيل له : من أين أقبلت ؟ فقال : من الأنس بالله ، وذلك لأن الأنس بالله يلازمه التوحش من غير الله[4] .

وفي مقام آخر يبين لنا البوطي أن الأنس بالله في الدنيا يمتد مع العبد إلى الآخرة ،ويظل مصاحبا له ، فكما أنه كان في الدنيا متعلقا بالله تعالى ، لا يؤنسه شيئا غيره ،معرضا عن كافة الملهيات و المنسيات التي من حوله ، فكذلك في الآخرة ، فهو أقرب ما يكون إلى مولاه ، وأكثر ما يكون أنسا به[5].

---

[1]– البوطي ، الحكم العطائية ، (مصدر سابق) ، ج4 ،ص94.

[2]– أبو القاسم القشيري ، الرسالة البيانية (مرجع سابق) ، ص 33.

[3]– البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج4 ، ص95.

[4]– الغزالي ، الإحياء (مرجع سابق) ، ج4 ، ص491.

[5]– البوطي ، المصدر نفسه ، ج4 ، ص 405.

والهيبة يقابلها الأنس ، وهما حـــالان صادران عن رؤية العبد لصفات الجلال ، والمهم من هذا كله إنما هو الوقوف على بيانات الشيـــخ البوطي لذلك .

لقد سبق القول أن البوطي لا يكترث كثيرا بمسألة المصطلحات الصوفية ، ولا يطيل الوقوف عندها إلا بقدر نفعها في الواقع الإسلامي المعاصر ، ولست أدري إلى متى تبقى هذه المصطلحات في واد والواقع الإسلامي في واد آخر ؟

فالبوطي يقرن بين الهيبة من الله ومعرفته ، ذلك أن معرفة الله ترسخ في العقل فهما ودراية أولا ، ثم يسري سلطانها إلى القلب هيبة وخوفا وتأثرا ، وذلك ما عبّر عنه البيان الإلهي في قوله :((**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاؤُا**[1]))[2] ، والعلم الحق هو الذي يثمر في القلب الهيبة و الخشـــية من الله والخـــوف منه وتعظيمه تعالى .

ويبين البوطي أن أول مراحل السير إلى الله هي العلم به تعالى ، ثم تأتي بعد ذلك درجة ثانية ، وتتمثل في غياب فاعلية الأسباب ، فيحجبه المسبب عن الأسباب ، والتحقق بذلك يكون بالإكثار من الذكر والإكثار من نوافل الطاعات مع الدوام على ذلك ،أما الدرجة الثالثة من درجات السير إلى الله فتتمثل في ما يطرأ على القلب من أحوال كثمرة لذلك ، ومن ذلك حال الهيبة والخشية منه تعالى[3].

كما يبين البوطي أن تعظيم الله والهيبة في حضرته تعالى والخوف منه ، مشاعر لا ينالها العبد إلا بالعلم ، ولذلك حصر الله تعالى الخشية منه في العلماء به في الآية السابقة ، وكل عالم دارس للكون ، واقف على كثير من حقائقه الكونية ، إن أفضت به علومه إلى معرفة الله وخشيته فذلك هو المطلوب من العلم ومن العالم ، أما إن توقفت به علومه عند حد الظاهر ووقف به عقله عند مجرد الدلائل و لم

---

[1]ـ سورة فاطر ، الآية 28.

[2]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج4 ،ص91.

[3]ـ المصدر نفسه ، ص 93.

يهتد بها إلى المدلول فهو جاهل لا قيمة لعلمه[1]، يقول البوطي : ((فمن سبر غور المقدمات الكونية وأحاط علما بما شاء منها ، ثم أعرض عما تقود إليه من نتائج معرفة الخالق وخشيته ، فهو جاهل... واعلم أن التلازم موجود ومستمر بين بين العلم المؤلف من المقدمات ونتائجها ، وبين خشية الله عز وجل))[2].

ومما لا يجوز إغفاله مما وقف عنده البوطي ونبه إليه في سياق الحديث عن هذه الأحوال أمران إثنان **أولاهما** ـــ وقد سبقت الإشارة إليه ـــ وهو شدة التلازم بين هذه الأحوال ،وأن المسلم الحقيقي من اجتمعت هذه الأحوال في قلبه ، وأثمرت في سلوكه وخلقه ، **وثانيهما** أن الهيبة والخوف وغير ذلك من الأحوال التي تحل في قلب السالك ، قد تترتب عنها آفة ، أو يخرج من رحمها شر مستطير ، ذلك أن السالك كثيرا ما يجد في قلبه هيبة من الله تعالى وخشية له ، ولكنه يستقبلها فرحا بها وهو على يقين أنها شهادة من الله على حسن حاله ، وهكذا حتى تصبح هذه الأحوال غاية يبحث عنها ويجرها إليه بالذكر والنوافل ونحو ذلك ، فينشغل بها عن الله تعالى ، وتصبح له حجابا يحجبه عن ربه ، وذلك لشدة اهتمامه بها وفرحه ، وكثيرا ما تمتزج برغائب النفس وأهوائها[3] .

وهذا التنبيه في غاية الدقة ، لا سيما إذا علمنا أن الشيطان يدخل من باب الطاعة أكثر ، بل إنه كاللص لا يدخل البيت الخرب .

-2-ج- الخوق والرجاء : وفي كتابات الصوفية نقف على تشابه كبير بين الخوف والهيبة ، إلى حد أن البعض لا يجد فرقا بيهما ، إلا أننا عند التدقيق في هذين الحالين ندرك أن الهيبة يقابلها الأنس ، بينما الرجاء يقابله الخوف .

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية ، (مصدر سابق) ، ص235.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص245و246.

[3]ـالمصدر نفسه ، ج3 ، ص271و272.

ولقد كررنا القول إن البوطي لا يكترث كثيرا لمثل هذه المصطلحات التي يكثر تداولها في كتب القوم ، ولا يقف عند مدلولاتها إلا على قدر نفعها في الواقع الإسلامي ، ولذلك أسلفنا القول انه يربط بين الخوف من الله والعلم به ، فعلى قدر معرفته تعالى والعلم به يسري سلطان الخشية في القلب ويتذوق المؤمن طعم الخوف من الله ، ولذلك نجد أن الوحي الكريم حصر الخوف من الله في العالمين به ، فقال :((**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ**[1])) .

ولقد قرنا بين كل من الخوف والرجاء ، وذلك ـــ كما يبين العلّامة البوطي ـــ لأن المؤمن يعيش متقلبا بين هذين الحالين ، فلا يتملكه الخوف إلى حد اليأس والقنوط ، ولا يغريه الرجاء إلى حد الذهول عن خشية الله والخوف منه .

– 2–د –الفناء والبقاء: يبين البوطي أن الفناء هو حالة من الإستغراق تعتري أصحابها فيذهلون بالمكون عن الأكوان ،وهم مع ذلك يمتلكون اليقين العقلي بوجود هذه الأكوان، ولكن اليقين العقلي يذوب في هذا الذهول ، كما أن هذه الحالة هي حالة من الجذب تحول دونهم وأن يتعاملوا مع الأغيار وفق العادة المعروفة والمألوفة[2] ،وهذه الحالة قد تمتد بصاحبها فتتملكه مشاعر وجدانية تجعله يلفظ بكلمات يتنافى ظاهرها مع قواعد الشرع ومبادئ العقيدة [3] .

والفناء من المواضيع التي يدور حولها جدل كبير ، والعلماء في شأنها بين مثبت ومتنكر ولكننا عندما نقف على شروحات البوطي ـــ وأمثاله ـــ لهذه المواضيع والمسائل فإن الذهن لا يستشكلها ، فيرى البوطي أن عقيدة المؤمن أحيانا يكون قوامها الأدلة والحجج ولكن الكثير من الناس ارتقى

---

[1]ـــ سورة فاطر ، الآية 28.

[2]ـــ البوطي ، السلفية (مصدر سابق) ، ص201.

3ـــ ومن هؤلاء الذين تملكتهم هذه المشاعر : أبو يزيد البسطامي ، والحلاج ، وغيرهم ، ومن الألفاظ التي نقلت عن أبي يزيد البسطامي والتي يتنافى ظاهرها مع قواعد الشرع قوله : ((ما في الجبة إلا الله)) ، وهذا هو الذهول في المكون عن الأكوان ، وهو ما جعل الكثير يحكم عليهم بالكفر والزندقة ، ينظر : البوطي ، المصدر نفسه ، ص 202.

أمره إلى تجاوز هذه الأدلة والبراهين ، ((إذ لا يجد بعين بصيرته أمامه إلا المدلول وهو الله عز وجل، أما المكونات التي كان يرى فيها مظهر البرهان والدليل ، فهي الآن في حكم بصيرته معدومة ، وليس المراد بالعدم هنا العدم الذاتي ، وإنما المراد به عدم الفاعلية والجدوى[1])) ، وهذه العقيدة تظل مهيمنة على مشاعره في كل تقلباته وأحواله ، فهو لا يشهد إلا مشهوده الواحد الذي هو الله تعالى ، ولا يتعامل إلا معه ، ولا يرى أمامه إلا فاعليته ، وهذه الحالة تهيمن على صاحبها وتزجه في الذهول عن ما سوى الله تعالى ، وهذا هو ما يصطلح عليه بالفناء [2].

ويبين البوطي أن البصيرة لا تستيقظ فتصبح لا ترى إلا صاحب الوجود الحق ، إلا إذا التزم صاحبها بالوظائف التربوية والسلوكية ، ووقف مناجيا ربه متجها إليه بكل مشاعره وحينها تغيب عنه فاعلية الموجودات الوهمية أو الظلية[3] ، ويوقعه ضعفه أمام الله تعالى في هذا الفناء ، ويصبح مقرا له بالعبودية متوجها إليه بالعبادة وكأنه يراه ، وهذه الحالة هي إنفعال قسري غير مكتسب ، وغير متكلف فيه ، وإنما هي مشاعر تنجم عن القرب من الله وحبه وصدق العبودية له ، بل وإن كل عبادة لا يجد فيها صاحبها لذة العبودية وحلاوة الإيمان فهي مجرد حركات ورسوم ، وليست هي العبادة التي كلف الله بها عباده ، ولذلك يبين البوطي أنه ما من عبد مؤمن حق الإيمان إلا وله حظ من هذا الفناء ، وإن لم يكن فناء الشعور عن ما سوى الله ، فهو فناء الإرادة لكل ماعدا الله ، ومعناه اليقين بأن الله هو الفاعل النافع الضار ، والإستمرار على هذه الحال من شأنه أن يرتقي بصاحبه إلى مرتبة الفناء الشعوري[4].

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، ص457.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 458.

[3]ـ المصدر نفسه ، ص459.

4ـ لقد وقف العلامة البوطي على شروحات ابن تيمية لمراتب الفناء ، حيث كان الإمام ابن تيمية مقرا بذلك ، ينظر : المصدر نفسه ص 202 وما بعدها.

وهذا البيان الذي جاء به العلامة البوطي لمسألة الفناء هو اليقين بالله تعالى ، وهو حقيقة الإيمان التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن ، وبذلك يمكن القول أن البوطي أزاح اللبس والغموض عن مثل هذه المصطلحات ، وقرّبها إلى الأفهام ، وأنزلها إلى الواقع الإيماني في حياة المسلم .

وأما والبقاء ــ كما أشار إليه البوطي في أزيد من موضع ــ فهو الحالة الشعورية التي تعقب الفناء ، وهو على حد تعبيره ((فمنهم من استمر على هذه الحال ــ أي حال الفناء ــ ومنهم من عاد إلى حالة الصحو والبقاء))[1] ، ويتضح من هذا أن حال الفناء والبقاء كأي من الأحوال الأخرى، تظهر وتغيب ، ومطمح أبصار السالكين إنما هو في التنسيق بينهما ، فهما متكاملان غير متنافيين ، فيكون العبد فانيا عن إرادة ما سوى الله وهو في الوقت نفسه شاعرا بالله وبالسوى ،كما نقل البوطي عن ابن تيمية[2] .

وتأصيلا لهذه المسألة نجد أن البوطي يجيبنا عن الإشكال الذي تطرحه بعض الأذهان ، حول حياة الرسول ــ صلى الله عليه وسلم ــ ، وهل كانت خاضعة لما يسمى حالة الفناء والبقاء ؟ أوليس كان ــ عليه الصلاة والسلام ــ يتقلب في فجاج الحياة ويتعامل مع الناس كأي واحد منهم ؟ فأين نلمس ذلك في حياته ــ صلى الله عليه وسلم ــ ؟ علما بأن هذا إن لم يكن له ملمس في حياته فهو حينئذ أمر خارج عن سنته ، وهو البدعة عينها .

وهذه الدعاوى كثيرا ما تصدر عن الذين يتعجلون في إصدار الأحكام بلا علم ولا تريث ، ويبين البوطي أن تقلبه ــ صلى الله عليه وسلم ــ في غمار الحياة ، ومعاملاته مع الناس كافة إنما هو من باب المهمة التشريعية التي كلفه الله بها ، والتي شاء الله أن تكون نموذجا لأصول التعامل الإسلامي السوي الذي يتضح فيه المنهج الإسلامي في التعامل ، وهذه ضرورة لا يمكن الإستغناء عنها ، ولكن لا تعارض بين هذا البقاء وذاك الفناء ، وآية ذلك أن النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في ثنايا معاملاته مع الناس كانت سريرته مع الله تعالى ، وكان قلبه سابحا في بحر لا ساحل له من شهود

---

[1] ــ البوطي ، السلفية (مصدر سابق) ، ص 202.

[2] ــ المصدر نفسه ، ص 203.

المولى عز وجل ، لا يعكر عليه صفو هذا الشهود أي مظهر من المظاهر الدنيوية من حوله ، فقد كان ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وهو على مشارف مكة متجها إليها يوم الفتح ، وهو مستغرق في حالة من شهود الله تعالى ،مستغرق في قراءة سورة الفتح[1]،ولا أثر في نفسه لنشوة النصر والظفر به [2] وهذا ما فيه دلالة كافية على الجمع بين الفناء والبقاء ، أي التعامل مع الناس في مختلف شؤونهم مع تعلق القلب بالله ، فما فناء الصوفية إلا إسقاطا لذميم الأوصاف ، وما بقائهم إلا تحل بالمحمود منها وهذه كلها حالات مستمدة من القرآن والسنة ، وأخلاق الصوفية كلها كذلك .

2-ه : وحدة الشهود :

يرى البوطي أن وحدة الشهود هي حالة شعورية لا قرارا عقليا ، ذلك أن المؤمن على الرغم من لمختلف الموجودات التي من حوله ، ويقينه العقلي الجازم بوجودها ، إلا أنه لا يرى فيها ولا منها إلا مرايا لتجليات صفات الخالق تعالى المنبثقة عن أسمائه الحسنى ، وبذلك فهو لا يرى في كثرة المكونات إلا وحدة المكون جل جلاله[3].

وهذا الفهم للكون وما بث الله فيه من عجائب صنعه ، هو جوهر العقيدة الصحيحة التي ينبغي أن يتحلى بها كل عارف بالله ، فالآثار المبثوثة من حولنا إن هي إلا آيات ناطقة بالمؤثر تعالى ، وهي تجليات لأسمائه الحسنى ، ومن الخطأ أن نقف عند ظواهرها ، ولا ندرك فيها الذي خلقها وسواها وفق هذا النظام الدقيق ، فما الأمطار والزروع والثمار إلا من تجليات صفة الرازقية ، وما الزلازل والبراكين ونحوها إلا رسالة تحمل إلى عقل المؤمن معاني العظمة الإلهية ، وتصور له أنه عبد ضعيف ، مسلوب الحول والقوة أمام مولاه الأعظم .

---

[1]ـ رواه البخاري عن طريق عبد الله بن المغفل ، كتاب فضائل القرآن ، باب القراءة على الدابة ، مجلد3 ،ج6 ،ص110 .

[2]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ج1 ،ص460، وينظر كتابه ، فقه السيرة (مصدر سابق) ص 383.

[3]ـ البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص 117.

ويبين البوطي أن الإنصياع التام للآيات التي يحث الله تعالى فيها عباده بالنظر والتدبر في عالم الحس لا يتم إلا بعد المداومة على الذكر ، وحينها تتحول الموجودات الحسية من كونها حجابا دون معرفة الله ، إلى مرآة تتجلى فيها وحدانية الله وفاعليته[1] ، فالمؤمن يرى أن الآيات الكونية ما هي إلا دلالة على وجود الله ووحدانيته ، وهذا ما يعبر عنه برؤية الوحدة في الكثرة .

وما يجعل المؤمن يرتقي إلى وحدة الشهود إنما هو حب الله تعالى ، وتقريبا لهذه الصورة إلى الأذهان يذكر لنا البوطي نماذجا من عالم الحس ، فالرجل المولع بحب فتاة لا يرى في مظهر منازلهم إلا صورتها، ولا يمتلك إلا أن يردد مع مجنون بني عامر:

أمر على الديار ديار ليلى أقبـــل ذا الجدار وذا الجـــدار

وما حب الديار شغفنني ولكن حب من سكن الديارا

وكذلك حال المرأة التي ذاب فؤادها شوقا إلى ابنها الغائب ، لا تمتلك إلا أن تضم ثيابه إلى صدرها وتقبله ، فهي لا ترى أثوابا ،وإنما ترى ابنها ، كما أن الشاعر لا يرى ديارا وإنما يرى حبيبا يسكن هذه الديار[2].

فإن كان تعلق الناس بعضهم ببعض يبلغ هذا المبلغ ، ويصل إلى هذه الحدود فماذا عن حب المولى جل جلاله إذا تمكن من قلب عبده ، أوليس يصبح المحب لا يرى إلا محبوبه سبحانه وتعالى ، فهو ذاهل فيه عن غيره .

وعلى هذا النحو البسيط يقرب لنا البوطي وحدة الشهود .

---

[1]ـ البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ، ص117.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص 118.

2 ــ و: وحدة الوجود :

وهي المسألة التي شغلت جمهورا كبيرا من علماء المسلمين ، وشكلت اختلافا واسعا بينهم ، فمنهم من يرفضها رفضا تاما ، ومنهم من يقبلها بتأويل حسن ، ولعل هذه هي المسألة التي كلما ذكرت إلا وذكر الشيخ الأكبر ابن عربي تبعا لها .

غير أن الذي يهمنا في هذا البحث إنما هو موقف البوطي من هذه النظرية ، والذي يظهر أن موقف البوطي من هذه النظرية إنما هو موقف والده الشيخ ملا – رحمة الله عليه – وهو ما صرح به في قوله : ((واعتقد أنني لم أتشبع بفهم هذه الحقيقة والقدرة على التعبير عنها إلا من كثرة ما أصغيت إليه وهو يشرحها ويعيد بيانها للسائلين والمستشكلين))[1] ، وكان يرى أن وحدة الوجود بمعناها الفلسفي إنما هي باطل من القول والاعتقاد ، ومن اعتقدها فهو كافر ، لأنها تصور لنا أن وجود الخالق والمخلوق وجود واحد ، وما المخلوق إلا جزء من الخالق ، وهذا القول يجعلنا نقطع بنقص وجود الخالق قبل وجود المخلوقات أو دونهم ، وهذا ما يلزم عنه القول بالحلول[2].

كما يبين البوطي أن الاعتقاد السليم المنطقي هو أن نعلم أن الوجود الحق المستقل بذاته إنما هو وجود الله تعالى وحده ، ثم إنه تعالى بقدرته وإرادته وتدبيره خلق المكونات ، فوجوده تعالى أزلي ووجوده ما عداه من المخلوقات محدث[3] .

غير أن الذي يمكننا الوقوف عليه أن وحدة الوجود لم تتحدد حولها الرؤى ، فإذا كان هناك من يمنحها هذا التفسير، ويذهب إلى أن المراد بها أن لا وجود إلا الوجود الواحد ، أي إن الخالق والمخلوق شيء واحد ، أو إن المخلوقات إنما هي جزء من الوحدة الإلهية ، وهو السبب الذي يدفعهم

---

[1] ــ البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ص114.

[2] ــ المصدر نفسه ، ص112.

[3] ــ البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ص112.

إلى الحكم على مثل هذا الكلام بأنه من نواقض العقيدة ، فإن هناك من يمنحها تأويلا آخر مفاده ما يلي :

إن هناك وحدة الوجود ووحدة الموجود ، أي إن الموجود الحق هو وجود الله تعالى ، والموجود هو إسم من أسماء الله الحسنى ، كاسمه الحق ، والباقي والدائم ، فالله تعالى هو الوجود الحق ، والوجود الدائم ، والوجود الباقي ، وبالتالي فالوجود لا ينسب إلا إلى الله تعالى ، أما الموجودات التي هي خلقه فإذا نظرنا إليها من جهة العدم فهي عدم ، أي كانت عدما قبل وجودها ، وإذا نظرنا إليها من جهة الوجود فهي موجود ، وهذا الوجود إنما كان وجوده بالله تعالى ، وهو من تجلياته تعالى الذي هو أصل الوجود ، وكلما تراه العين فإن الله هو فاعلها ، وبالتالي فإن الوجود كله إنما هو من أفعال الله تعالى .

وهذا تأويل حسن ، ونرى أنه أولى من قذف ابن عربي الذي نسبت إليه هذه النظرية بالكفر والزندقة .

وثمة إشكال آخر ، وهو أن المتتبع لكتابات البوطي يدرك أنه ينفي القول بوحدة الوجود عن ابن عربي ، ويرى أنها مما دسته طائفة من الزنادقة الباطنية في كتبه ، مستدلا بما ذكره ابن العماد في الشذرات ، والشعراني في اليواقيت والجواهر وغيرهما[1] ، وهو نفسه ما ذهب إليه زكي مبارك مستدلا بما أثبته الفيروزآبادي والشعراني وغيرهما[2] .

وعلى الرغم من ذلك كله نجد أن البوطي يرفض وحدة الوجود من منطلق فلسفي ، ويعمد إلى أن يحيلها إلى وحدة شهود ، أي إن الوجود واحد ، وما الوجود إلا من تجليات الموجود ، وتوحيد الله

[1]ــ البوطي ، السلفية (مصدر سابق) ص204 هامش ، وينظر هذا والدي ص110 هامش.

[2]ــ زكي مبارك ، التصوف الإسلامي (مصدر سابق) ج1 ص161.

تعالى لا يكون إلا بفهم هذه الحقيقة ، وهذا الوجود فيه وجود ذاتي ووجود تبعي ، أو وجود أصلي ووجود ظلي ، على نحو قول لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل .....[1].

ومثل هذا نجده فيما ذهب إليه مصطفى صبري ، حيث نسب القول بوحدة الوجود إلى شيوخ الصوفية وفي مقدمتهم ابن عربي ، وكان يرى ــ أي مصطفى ــ أنها من أكبر الأخطار على العقيدة الإلهية الصحيحة ، وأنها نظرية عظيمة الخطر والضرر ، وهي مشتقة من القول بأن وجود الله هو عين ذاته ، وهو قول فلسفي تبناه كثير من المتكلمين[2].

وفي مقام آخر نجد أن البوطي يصرح كذلك أن وحدة الوجود هي كفر صريح ، وجنوح عن النصوص الصريحة الجلية القاطعة في كتاب الله عز وجل ، والتي يتبين من خلال الوقوف عليها أن الله بارئ خالق لهذا الكون[3].

ولا شك أن مثل هذا الكلام فيه كثير من الخطورة ، لأنه يحمل دلالة صريحة على تكفير أمثال ابن عربي ، فهل معنى ذلك أن البوطي ممن يكفرون ابن عربي ؟ وهذا ما سنقف عليه في العنصر اللاحق .

2 ــ ز ــ موقف البوطي من ابن عربي :

الحق أن الشيخ البوطي من العلماء الذين هم أبعد الناس عن ظاهرة الغلو والتكفير ، أو نسبة الآخرين إلى الكفر والزندقة ، بل إن منهجه قائم في مثل هذه المسائل على التماس الأعذار والبحث عن المخارج ، فنجده في هذه المسألة تحديدا ــ أي وحدة الوجود ــ يعلن أنها وردت في كتب ابن عربي ، وأنه قال بها ، وهي بلا شك كفر صريح ((غير أن الحكم ببطلان هذا الكلام وكفر قائله لا يستلزم بالضرورة تكفير الشيخ ابن عربي ولا نسبته إلى الزندقة والضلال ، بل إن ذلك أعم بكثير من

---

[1] ــ البوطي ، هذا والدي (مصدر سابق) ص112.

[2] ــ مصطفى صبري ، موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، ط1 ، بيروت : دار إحياء التراث العربي 1401هـ .

[3] ــ البوطي ، قضايا ساخنة (مصدر سابق) ، ص377.

هذا المدعى ، ومن ثم فليس بينهما تلازم حتمي))[1] ، وحجة البوطي في ذلك هي نفسها المتكررة في كثير من كتبه ، وهي أن القول بوحدة الوجود إنما هي من الأقوال التي نسبت إليه ، ودست في كتاباته وفي مقدمتها كتاب (الفتوحات) .

ولكن السؤال الذي يأبى إلا أن يطرح نفسه ، ونرى أنه ربما ينهي الإشكال القائم حول هذه المسألة ، إنما هو حول إن كان ابن عربي صرح بالقول بوحدة الموجود في كتاباته أم أنها من المستنتجات من أقواله ؟

وهذا ما لم يبصرنا به البوطي في كتاباته ، ولا بصرنا به ابن تيمية من قبله والذي يعد أكبر خصم لابن عربي ، وكثيرا ما كان يرميه بالزندقة والكفر ؟

واعتقد أن من الوفاء للمنهج العلمي البحث في ذلك والكشف عنه .

والظاهر أن ابن عربي لم يصرح بالقول بوحدة الوجود في كتاباته ، وإنما أوردها في تحفظ واحتراس فيما ذهب إليه بعض الدارسين لشخصيته[2].

وأيا كان الأمر فإن ذلك لا يستلزم تكفير الشيخ ابن عربي ، ولا نسبته إلى الزندقة ، بل إنه لا يسع المسلم إلا أن يحمل مثل هذه الأقوال على الوجه الحسن ، لاسيما وأنه ورد في كلامه ما ينفي عنه ذلك ، واعتقد أن الخطأ في العفو وتحسين الظن بالآخرين أقرب إلى المنهج الإسلامي وإلى روح الإسلام ومقاصده من الخطأ في التكفير والرمي بالزندقة ، على نحو ما ذكر الشيخ البوطي من أنه إذا كان لابد من تأويل العبارات الباطلة لتتحول إلى حق فنحافظ بذلك على حسن ظننا بصاحبها ، وذلك هو الحق الذي ليس خلافه إلا الباطل الذي يقضي بتأويل كلام الغير الحق ليتحول إلى باطل ، فنجعله معتمدنا في إساءة الظن

---

[1]ــ البوطي ، قضايا ساخنة (مصدر سابق) ص377.

[2]ــ زكي مبارك ، التصوف الإسلامي (مرجع سابق) ج1 ، ص152.

بالآخرين ، ولا شك أنه مما لا يرتاب فيه مسلم قط أن الواجب على كل مسلم إنما هو تأويل الباطل بما يتفق مع الحق الذي عرف به الرجل واشتهر عنه[1].

المبحث الثاني : مقتضيات الممارسة التخليقية.

من المعلوم أن التصوف هوحالة إتصاف ، ومداره على التخلي عن ذميم الأخلاق والتحلي بأحسنها ، و لم يكن التصوف يوما مجرد معرفة نظرية ، ولذلك فإن الممارسة التخليقية تقتضي جملة من الرياضات أهمها :

– **الذكر (الورد)**: والبوطي ــ كغيره من العلماء ــ يذهب إلى وجوب إلتزام المسلم بورد دائم ومنتظم من الذكر والتسبيح والإستغفار ، ومن أفضل أنواع الذكر التي يتقرب بها المسلم إلى الله تعالى ، وبها تقوى روحه ، تلاوة كتاب الله تعالى ، فبه تلين القلوب القاسية ، وبه تستيقظ العقول الغافلة ، وبه تذوق العين حلاوة الدمع وطعم خشية الله تعالى[2] ، وقد يعتري المسلم ما يشغله عن ورده ، فينبغي له أن يتداركه متى تيسر له ذلك ، كما ينبغي له أن يحذر من تضييعه أو تفويته فيألف إهماله وتتعود نفسه على التكاسل عنه.

كما يذكر البوطي أن من أسباب التعرض لألطاف الله ونفحاته يكون ــ بعد آداء الفرائض واجتناب المحرمات ــ بالإكثار من ذكر الله ، وهنا يبين لنا البوطي أن الذكر لا يتم فقط باللسان دون سائر الأعضاء ، بل إن القلب هو الآخر محلا لذكر الله تعالى ، وهو الذي به تزول الغفلة[3] ، ويتبين من هذا أن الأصل في الذكر أن يكون بالقلب ، واللسان إنما هو ترجمة للمعاني القلبية ،

---

[1]ــ البوطي ، السلفية (مصدر سابق) ص205.

[2]ــ البوطي ، باطن الإثم (مصدر سابق) ، ص49.

[3]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج2 ،ص72.

ولذلك نجد أن البوطي بعدما نبّه إلى ذكر الله بالقلب ، بين نوعا آخر للذكر وهو ذكر اللسان ، وهو المواظبة على ورد دائم من الإستغفار والتسبيح والتهليل ، والصـــلاة على النـــبي – صلى الله عليه وسلم – ، ثم ذكر لنا نماذج من التسابيح والأذكار الواردة في السنة ، كسبحان الله والحمد لله والله أكبر ، وغير ذلك في السنة كثير[1] ، والمداومة على هذا الذكر هو السر الذي تقوى به الروح ، والذي به يتعرض الإنسان لرحمة الله وفضائله ، ويمده الله بنفحات تشرق في قلبه .

كما نجد أن البوطي يربط بين ذكر الله وحبه وتعظيمه ، وواضح أن حب الله وتعظيمه يجعل العبد لا يغفل عن مولاه ، ويجعل لسانه يتحرك بذكره ، ولذلك فهو يرى أن بالذكر يحيا القلب ولما كان الذكر في حياة المسلم أمرا مطلوبا فإن تنظيمه كذلك أمرا مطلوبا[2] ، ولعل تنظـــيم الذكر هو الأمر الذي يستشكله كثير من الناس ، ويتساءلون عن مستند له من الكتاب والسنة ، وهي النقطة التي يزيل عنها البوطي الغموض ، مبينا دلالة الكتاب والسنة عليها ، ومـــن ذلك قوله تعالى : ((**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ۝٤**[3])) ، وقوله أيضا : ((**فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠**[4])) ، وهي آيات صـــريحة في دلالتها على الحث على الذكر في أوقات مخصوصة[5].

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج2 ، ص73.

[2]ـ المصدر نفسه ، ج2 ، ص569.

[3]ـ سورة المزمل ، الآيات 1 ، 2 ، 3 ، 4.

[4]ـ سورة ق ، الآية39 ، 40.

[5]ـ المصدر نفسه ، ص 181.

ومن صور ذكر القلب التي يذكرها الشيخ البوطي ربط كل نعمة تفد إلى الإنسان بالمنعم تعالى، فيقبل على ممارستها ويتمتع بها وهو على ذكر بأن الله تعالى هو الذي وهبـــها له وأكرمه بها[1] ، إذ لا يليق أن ينسب المرء له ما لا دخل له في التفضل به ولا قدرة له على ذلك ، فأنى للعبـــد الضعيف أن ينزل الماء من السماء ، وأنى له أن يخرج الحب والثمرات مختلفا ألوانها ، وأنى له أن يمد نفسه أو غيره بنعمة السمع والبصر ، وغيرها من النعم التي لا نحصي لها عددا .

ولذلك فإن الذكر هو الحبل الرابط بين العبد ومولاه ، وهو النور الذي يشرق في القلب فيستنار به، غير أن في الناس ـــ وما أكثرهم ـــ من يستشكل مسألة الذكر اللساني مع غفلة القلب ، فماذا عن من يظل لسانه يتحرك ذاكرا وقلبه فاكه في شغل من الدنيا ؟

لقد تطرق البوطي لهذه المسألة التي هي حـــال الكثير منا ، وانطلق في كشف اللبـــس عـــنها من حكمة ابن عطاء الله التي يقول فيها : ((لا تترك الذكر لعدم حضورك مع الله فيه ،لأن غفلتك عن وجود ذكره أشد من غفلتك في وجود ذكره ، فعسى أن يرفعك من ذكر مع وجود غفلة إلى ذكر مع وجود يقظة ، ومن ذكر مع وجود يقظة إلى ذكر مع وجود حضور ، ومن ذكـــر مع وجود حضور إلى ذكر مع غيبة عما سوى المذكور)) ، وبين أن الذكر باللسان هو واحد من الســـبل الموصلة إلى الذكر القلبي ، ومن لم يجد أثرا في قلبه من الذكر باللسان ، وبقي القلب في واد آخـــر فليحذر أن تحدثه نفسه بترك الذكر كلية ، فإن الغفلة عن الذكر أشد من الغفلة في الذكر ، وذلك لأن في ذكر اللسان تزيين له من جهة ، ومن أخرى إلجام له عن الغفلة أو الإشتغال بالسوء من القول ومن شأنه أن يقود إلى ذكر القلب[2].

والظاهر أن الذكر كيفما كان فهو أمر محمود في الشريعة ، وهو درجات ، أولها الذكر باللسان ، ثم الذكر بالقلب ، والذي يرتقي بصاحبه إلى علو وحدة الشهود ، فلا يذكر الذاكر إلا المذكور ، وليس من العسير على الله أن يرفع عبده إلى هذا المقام إن جعل جارحة اللسان رطبة بذكره ، وداوم

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج3 ، ص 263.

[2]ـ المصدر نفسه ، ج1 ، ص 567.

على ذلك ، ولذلك نجد أن البوطي ممن لا يرون بأسا في ذكر الله تعالى على النحو الذي تيسر لصاحبه ، ولا يرى بأسا في الذكر المشهور على ألسنة بعض الصوفية باسم الله المفرد "الله" ، وإن لم يرد إسم الجلالة في جملة تامة المعنى ، ويرى أن الأدلة في ذلك محتملة وليست قاطعة ، مما يؤدي إلى الإختلاف في فهمها ، والرأيان كلاهما مندرج ضمن دائرة الكتاب والسنة[1] ، ومن أشهر الذين خالفوا في هذه المسألة الإمام ابن تيمية ، ورأوا أن الذكر لا يصح إلا بجملة تامة المعنى[2] .

ومنهج البوطي في مثل هذه المسائل التي يكثر فيها الجدل والخلاف ، هو الوسطية والإعتدال ، وترك التعصب إلا للدليل ، والتركيز على ما فيه فائدة الأمة ، وحث الناس على الذكر الذي به تقوى الروح ويحيا القلب ، أما الإختلاف فلا جدوى منه ، بل لعل أغفل الناس عن الذكر أكثرهم جدلا فيه .

ومن المسائل المتعلقة بالذكر التي لم يغفلها البوطي ، ما شاع من بعض الطرق الصوفية من الجمع بين الذكـــر وما هو منهي عنه كالرقص والتثني ، مبينا حرمتها بإجماع الجمهور، يقول : ((ذهب الجمـــهور إلى أن الرقص محرم إن كان مع التثني ، واتفقوا على أنه مكروه إن كان بدون ذلك ، فإدخال الرقـــص مهما كانت كيفيته في ذكر الله تعالى إقحام لما هو مكروه أو محرم في عبادة مشروعة ، وتحـــويل له بذلك إلى عبادة يتقرب بها إلى الله دون دليل عليها .... فكيف يكون هذا ذكر لله تعالى كالذي أمر الله به ، والذي كان يفعله الرسول ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وأصحابه ، وكيف يكون هذا العمل عبادة؟ والعبادة كما تعلم هي ما شرعه الله تعالى في كتابه أو في سنة رســـوله ، ولا يزاد عليها ولا ينقص منها))[3].

---

[1]ـــ البوطي ، السلفية (مصدر سابق) ، ص195.

2- يرى ابن تيمية أن الذكر لا يصح إلا بجملة كاملة المعنى، وفي هذا يقول : ((ومن زعم أن هذا ذكر العامة ، يقصد الذكـــر بعبارة مثل : لا إله إلا الله ، أو سبحان الله إلخ...وأن ذكر الخاصة هو الاسم المفرد ، وذكر خاصة الخاصة هو الاسم المضمر فهم ضالون)) وبين أن ذلك لم يرد عن سلف هذه الأمة ، ينظر : ابن تيمية ، مجموع الفتاوى (مرجع سابق) المجلد 10،ص 226.

[3]ـــ البوطي ، فقه السيرة (مصدر سابق) ، ص409 ـــ .

– **التدبر** (**النظر والتفكر**): من المعلوم أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم ، وكرّمه أحسن تكريم ، ومن أبرز مظاهر التكريم الإلهي لعبده أن رزقه نعمة العقل ،وهذا التكريم يتبعه تكليف ويتمثل هذا التكليف في حثه تعالى على استعمال هذا العقل في النظر والتدبر في الأنفس والآفاق ، ابتغاء الوصول إلى معرفة الخالق والإيمان به ، وفي هذا السياق ينبه البوطي إلى أن النظر والتدبر مسلك من مسالك جهاد النفس ورد غوائلها ، ومن ثمة كان لزاما على الإنسان أن يتفكر في مصيره وحاله وأن يوقظ عقله إلى ذلك عند كل غفلة أو نسيان[1].

ولما كان العقل يكتسي هذه الأهمية البالغة ، جاءت دعوة القرآن الكريم إلى الإهتمام به والحث على استعماله متكررة في كثير من آياته ، وختمت آيات أخرى كثيرة بقوله : لعلكم تتفكرون ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ، أفلا تتفكرون[2] إلـــخ...

وإن الدنيا وتاريخها الطويل لم تعرف شخصا جسّد هذه الحقيقة كالنبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ ((ولذلك أيضا كانت الركيزة العظمى في حياته مؤمنا وداعيا ومجاهدا إنما هي الفكر الدائم))[3] ، ومن اليقين أن الفكر لا يتأتى له أن يؤدي وظيفته التي كلفه الله بها كاملة لا تشوبها الشوائب إلا إذا استعان مع ذلك بالإبتعاد عن ضوضاء الناس والفوضى السارية في مناحي حياتهم ، ولذلك نـــجد أن للصوفية كلام طويل في منح العقل وقتا لا بد منه ، ليمارس مهمته بمنأى عن فوضى الخليقة ، وهو ما يعرف بالعزلة ، فما هي حقيقة ذلك ؟

– **الخلوة** (**العزلة**) : لقد تناول البوطي موضوع العزلة في مواضع كثيرة من كتاباته ، وهو في ذلك ساعيا إلى بيان حقيقتها ، وحدودها ،ودورها في تربية النفس وتهذيب الخلق وتقوية الروح، ومرجعيته في ذلك سنة النبي ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ وقصته قبيل نزول الوحي ، وكيف أن الله تعالى حبب إليه الخلوة في غار حراء ، فكان يمكث فيه الليالي ذوات العدد ، ثم يعود إلى بيته ، فما

---

[1]ـــ البوطي ، باطن الإثم (مصدر سابق) ، ص46.

[2]ـــ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[3]ـــ المصدر نفسه ، ص 47.

يمكث فيه حتى يجدد زاده ويعيد الكرّة من جديد ، وهكذا إلى أن جاءه ملك الوحي وهو في إحدى خلواته تلك[1] ، واستنادا إلى هذا الحديث يبين البوطي الأهمية الكبرى للعزلة في حياة المسلم عامة والداعية خاصة ، فهي ((توضح أن المسلم لا يكمل إسلامه مهما كان متحليا بالفضائل ، قائما بألوان العبادات حتى يجمع إلى ذلك ساعات من العزلة والخلوة يحاسب فيها نفسه ،ويراقب الله تعالى، ويفكر في مظاهر الكون ودلائله على عظمة الله))[2] .

والعزلة هي دواء لأمراض كثيرا ما تعلق بالقلب ، كالكبر والعجب والرياء والحسد ونحو ذلك ، لأن فيها ـــ أي العزلة ـــ تتم محاسبة النفس ، وفيها يتم ذكر الله ، وفيها يتم التدبر والنظر في الآفاق وفي النفس ، وفيها يستحضر المسلم ضعفه وحاجته إلى مولاه ، وكأن العزلة هي لون من الذكر ، إن لم تكن هي ذكر القلب نفسه ، وهذا هو المعنى الذي قصده ابن عطاء الله السكندري في قوله :((ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة)) ، واقترانها بالفكرة يعني ألا تتحول إلى مجرد فرار من الحياة ومن الواقع الإجتماعي الذي أمر الدين بالتعامل معه وتفعيله واقتحام غماره ، ومن هنا ندرك أن للعزلة ضوابط وحدود ، وهو ما وقف عليه البوطي وفصّل القول فيه .

لقد بين البوطي أن كلمة " عزلة " التي وردت في كلام ابن عطاء الله ، وردت نكرة ، وفي ذلك دلالة على أن المراد بها شيء منها ، فلو أن ابن عطاء الله قال " العزلة " معرّفة لانصرف المعنى للدلالة على استدامتها ، أي إن العزلة المشروعة تكون على قدر الحاجة ، لئلا تتحول إلى مدعاة إلى إقصاء النفس عن الدنيا ومن شؤون الناس[3] .

---

[1]ـــ إشارة إلى حديث البخاري عن عائشة ، ينظر : البخاري ، الجامع الصحيح ، مجلد1 ،ج1 ، ص 3.

[2]ـــ البوطي ، فقه السيرة (مصدر سابق) ، ص79.

[3]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ج1 ، ص169.

كما بين البوطي أن من حكم العزلة أنها تفتح مجالا للتأمل والنظر والتفكير ، وإيقاظ الفكر إلى معرفة الحقيقة الكونية ، وهو ما يقرب العبد من ربه ، ويبصره بحقيقته ، ويجعله يدرك أن هويته أنه عبد مملوك لله ، وذلك طريق معرفة الله وحبه وتعظيمه[1] .

وبهذا تتضح معاني العزلة والمغزى الذي لأجله شرعت ، فهي تأمل وذكر وتحفيز للمسلم على صدق التوبة وتجديد العهد مع الله ، وهي شحنة روحية تدفع المسلم إلى الإستقامة ، وهذا هو المعنى الذي أراد البوطي أن يوصله ، وإلى مثل هذا ذهب الإمام ابن عجيبة ، حيث عدّد للعزلة عشر فوائد هي :

– السلامة من آفات اللسان .

– حفظ البصر والسلامة من آفات النظر .

– حفظ القلب وصونه من آفات الرياء .

– حصول الزهد في الدنيا والقناعة منها .

– السلامة من صحبة الأشرار والأراذل .

– نيل حلاوة الطاعة .

– راحة القلب والبدن .

– صيانة النفس والدين من شر الخصومة الناجمة عن الخلطة .

– و التمكن من عبادة التفكر والإعتبار[2] .

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية ، (مصدر سابق) ، ج 1 ، ص171.

[2]ـ أحمد بن عجيبة ، إيقاظ الهمم (مرجع سابق) ،ص33.

وواضح أن هذه الأخلاق التي تثمرها العزلة هي جوهر التصوف الإسلامي الصحيح ، بل هي لب الإسلام الصحيح .

–**الشيخ** : يذهب البوطي إلى أن التمسك بالسنة العطرة التي حثت على الإستقامة والخلق والوصول إلى الله ، لا يتوقف على مرشد بحيث إن لم يوجد تعطلت السنة وانقطعت سبل العمل بها ، وفي الوقت نفسه نجد أن البوطي لا يشكك في أن المرشد نعمة كبرى ، وإن لم يكن شرطا لابد منه[1] وهو ما يجعلنا نفهم أن الشيخ عامل إضافي في التربية والتذكير والتبصير بأمراض الباطن والكشف عن سبل علاجها .

وكثيرا ما نقف على بعض مبالغات الصوفية في هذه النقطة تحديدا ، حتى إنه مما أثر عن الغزالي أنه كان يقول : من لم يكن له شيخ فإن الشيطان شيخه ، ونقل الإمام القشيري أخبارا كثيرة تصب في مصب الطاعة المطلقة للشيوخ ، وجعل ذلك تحت عنوان " باب حفظ قلوب المشايخ وترك الخلاف عليهم "[2].

ومثل هذه الأقوال لا تسلم من المبالغة ، بل ربما كان لها إنعكاس لا يحمد عقباه ، فكثيرا ما يفتح باب التكسب بالمشيخة ، وكثيرا ما يجعل منها وسيلة للإحتراف وطلب الشهرة في الأوساط ، وهذا ما جعل البوطي يتريث في تبني موقف من يرى ضرورة المشيخة ، وفي ذلك يقول :((على أن الذي يتخذ من أعمال الإرشاد حرفة يتكسب من ورائها ، ويبني لنفسه مكانة وشهرة بين الناس بها ، ليس مرشدا بل هو صاحب حرفة ،وطالب معيشة ورزق ،طاب له أن يطرق في ذلك باب الدين بدلا من الدنيا))[3] وهذا ما يجعلنا على يقين من أمرنا من أن للمشيخة شروط ، وقد تطرق البوطي إلى بيانها ، وهي أن يكون الشيخ متبصرا بعلوم الشريعة الإسلامية ، جاعلا منها ضابطا لسلوكه وتصرفاته ، ثم ألا يكون للدنيا وأطماعها وجود في قلبه ، فهو زاهد في مغرياتها مترفع عن

[1]– البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ،ص177.

[2]– القشيري ، الرسالة البيانية (مرجع سابق) ، ص105.

[3]– البوطي ، المصدر نفسه ، ج1 ،ص177.

أطماعها ، ثم أن يكون معرضا عن حظوظ نفسه ، لا يبتغي بشيء من أعماله غير مرضات الله تعالى، ثم أن يستوي في نفسه مدح الناس وقدحهم ، فهذا هو الشيخ الذي ((عليك به ،وتشبث بأذياله ، إذ ما من شك أنه سييسر لك سبيل القرب من الله تعالى ، وأسباب الإبتعاد عن مزالق الشيطان))[1] ، وتوضيحا للصورة أكثر يبين البوطي أن السير إلى الله غير محصور في الوقوف عليه ـــ كما سبقت الإشارة ـــ ، إذ ليس من صادفه سار إلى الله ومن لم يصادفه أعرض عن الله ، بل يمكن أن يحل محله كل ناصح صـــالح ، وليس أرشد للسائر إلى الله الذي يبتغي الوصول إليه ، من القدوة الأولى في حياة كل مسلم ، من النبي ـــ صلى الله عليه وسلم [2] .

ومن باب تيسير الأمر ، نجد أن البوطي في سياق آخر يعطي معـــنى أوســـع لمســـألة الشـــيخ ، ويجعل منها كلمة شاملة لكل جليس صالح ، من شـــأنه أن يعـــين صـــاحبه علـــى الـــذكر ودوام الفكر[3].

---

[1]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1 ، 178.

[2]ـــ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[3]ـــ البوطي ، باطن الإثم (مرجع سابق) ، ص 48.

– المبحث الثالث : الممارسة التحقيقية .

1 – حقيقة العبودية وأثرها في الممارسة التحقيقية :

من المعلوم أن العبودية لله تعالى هي التبري من أوهام الحول والقوة ، ففي كلمة كثيرا ما يكرر العبد ذكرها ، وهي "لا حول ولا قوة إلا بالله " مكمن العبودية ، لأنها نفـــت عن العبد ما يتوهمه من قوة كامنة فيه ، ونسبتها إلى أصلها ، وهو الله تعالى ، وربطت الفاعلية به وحده دون أحد من خلـــقه ، وبذلك فالعبودية هي أن يعلم العبد أنه في حد الصفرية ، وكل حركة أو سكون صادرة عن خلقه فإنما هي به تعالى .

وهذا المفهوم الذي تدل عليه كلمة العبودية دار عليه كلام البوطي في مواطن عديدة ومواضع متفرقة، فالتحقق بالعبودية ينفي كل ما يمكن أن يستعبد المسلم من دون الله ، وذلك كالمال والجاه و مختلف الأغراض ، وسبيل التحرر من أسر هذه المعبودات الوهمية ، هو المجاهدة التي كلفنا الله بها في قـــوله تعالى : ((**وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۖ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ**[1] ..)) ، وقوله أيضا : ((**وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ** ﴿٦٩﴾[2]))[3] ، وهنا يتبين أن العبودية هي الحرية ، ففي تمام العبودية كمال الحـــرية لأن العبودية لله تعالى تقتضي أولا التحرر مما سواه ، وهذا ما نقف على بيان له عند البوطي في موضع آخر ،إذ يقول : ((يقين الإنسان بعبوديته ومملوكيته لهذا الواحد ، يدفعه إلى أن يدين بالولاء والخضوع له وحده ، دون سائر الكائنات الأخرى على اختلافها وتفاوتها في الأهمية ، فمهما لاحت له مظاهر القوة أو مقومات السلطة أو بوارق الضرر والنفع ، في شأن أناس من أمثاله من البشر ، لا يقيم لشيء من ذلك وزنا ولا يوليه أي أهمية أو إهتمام ومن ثمة فإن ذلك كله مجتمعا لن يقوى على انتقاص شيء من آفاق حريته ، إذ قد انحصرت الفاعليات كلها ـــ في يقينه

---

[1]ـــ سورة الحج ، الآية 78.

[2]ـــ سورة العنكبوت ، الآية 69.

[3]ـــ البوطي ، باطن الإثم (مصدر سابق) ، ص45.

العقلي ـــ في ذات واحدة هو الله عز وجل ، وكل ما عداه مملوك له مسير تحت سلطانه داخـــل قبضته))[1]، ولذلك فإن العـــبودية التي كلف الله بها الإنسان ، يمارسها الإنسان بالسلوك الاختياري ، وذلك من خلال تنفيذ أوامره تعالى ، والإنقياد لأحكامه ، والخضوع لسلطانه طوعا ، مما يتبين من خلاله أن ممارسة العبودية لله تعالى هي ثمرة للتكليف[2] .

كما أن ممارسة العبودية لله تعالى تجعل الإنسان لا يضيمه من مصائب الدنيا شيئا ، ولا تنحرف به النعم عن الطاعة شيئا ، وإنما يقابل المكروه بالصبر عليه ، كما يقابل النعمة بالشكر لها ، وهو بين هذه وتلك يمارس عبوديته لله تعالى بصدق ويقين ، لطالما أنه يعلم حقيقة الدنيا التي يعيشها ويدرك مغزى الحياة التي يحياها ، وذلك من خلال التصوير القرآني الرائع والدقيق لهذه الحقيقة ،في مثل قوله تعالى : ((**فُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ إِتَّقَىٰ وَلاَ تُظْلَمُونَ فَتِيلًا** ﴿٧٧﴾[3])) ، وقوله كذلك: ((**لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوِيٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِيسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾**[4]))[5].

وفي مقام آخر نقف على بيان البوطي لأثر العبودية في الممـــارسة التحقيقية ، ذلك أن الســـبيل إلى التخلص من ذميم الصفات والتحلي بأحسنها ، ليس إلا ثمرة من ثمرات العبودية ، وآية ذلك أن ما قدمته الفلسفة الغربية من جهود في سبيل تطهير الطباع والتحلي بجميل الأخلاق لم يزد عـــلى أن يكون جهدا ضائعا لا ثمرة له ، بل سرعان ما أعلن عن فشله ،وسر هذا الفشل الذي داهم الفلسفات الغربية إنما هو في كونها لم تتجه إلى تقديم العلاج الذي وضعه الله تعالى لهذا الأمر ، والذي يكمن في التنبيه إلى فطرة العبودية لله تعالى الكامنة في النفس ، هذه العبودية التي تغذى بالطاعات المتنوعة التي شرعها الله تعالى لعباده والتي ينتقلون بها من معـــرفة أنفسهم وإثباتها ، إلى معـــرفة الله وإثبات

---

[1]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج2 ،ص133.

[2]ـــ المصدر نفسه ، ج1 ،334.

[3]ـــ سورة النساء ، الآية 76.

[4]ـــ سورة آل عمران ، الآية 196ـــ 197.

[5]ـــ المصدر نفسه ، ص 343.

الفاعلية له[1] ،مما يقتضي نفي الذات الفاعلة ،ثم تتحرر هذه الذات ـــ تبعا لذلك ـــ من ذميم الصفات ودنيئها ، لتتحلى بأسنى الأخلاق وأفضلها ، وكل ذلك يأتي وفقا لما رسمه لها الله تعالى ، والـــذي دانت له هذه النفس بالعبودية الكاملة.

كما أن العبودية لله تعالى إذا تحلى بها العبد أثمرت في قلبه المحبة التامة للمعبود ، فـــ ((تمتزج نشـــوة الحب مع ذل العبودية لله عز وجل ، ولا يصلح حال العبد مع الرب إلا هذا المزيج))[2] ،ولا شك أن العبد أعجز ما يكون عن تأدية حقوق هذا الحب كاملة ، بل إن حكـــمة الله اقتضت ذلك، وذلك حتى يبقى الإفتقار إليه تعالى سار في العبد ، وحتى يدرك الإنسان ضعفه أمام قوته تعالى ، فالعبودية بلا شك تقتضي ـــ كما قال الإمام القشيري ـــ التذلل لله والتبري من الحول والقوة[3] ، ولذلك يبين البوطي أن من ثمرات هذه المزاوجة بين الحب والعبودية التذلل له تعالى ، والإقرار عند بابه بالعـــجز والضعف ، وهذا ما يبعث روح العبودية في رسوم العبادة ، وهذا هو الشهود الذي يستشعره العبد في ذل ذلك الخطاب الممتع الذي يتوجه به إلى مولاه بين الفينة والفينة : ((**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴿4﴾))[5].

ومما سبق يمكننا أن نخلص إلى أن العبودية لله هـــي أن يكـــون العبـــد مـــن الله وبـــالله وإلى الله وأن يتبرأ من أوصافه حتى يمده الله بأوصافه ، فإذا تحقـــق بحقـــيقة العبوديـــة لله تعـــالى ، كـــان له من الله عون وإمـــداد يسوقه إلى التحلي بكل خلق سني ، والتخلـــي عـــن كـــل خلـــق دني ، فتصـــطبغ بذلك عباداته بلون العبودية لله تعالى ، وتكون عباداتـــه وعـــاء لعبوديتـــه ، وذلـــك هو المقام المرجو.

---

[1]ـــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج1،ص 432.

[2]ـــ المصدر نفسه ، ص 382.

[3]ـــ القشيري ، الرسالة البيانية (مرجع سابق) ، ص91.

[4]ـــ سورة الفاتحة ، الآية 4.

[5]ـــ البوطي ، المصدر نفسه ، ج2 ،ص472.

2- التحقق بوصف الإفتقار : لقد سبق القول أن من مستلزمات العبودية لله تعالى التحقق بالإفتقار إليه تعالى ، وكما بين البوطي فإن الإتصاف بحالة الإفتقار والذل لا ينالها العبد إلا إذا أفرغ كأسه من أوهام الحول والقوة والغنى والتملك[1] ،وحينها يشعر العبد بفقره إلى مولاه ،وذله له ، فإذا شعر بذلك وتحقق به ملأ الله كأس وجوده بمن لا تحصى ولا تعد من القوة والغنى والسعادة ، أي شعور العبد أنه غني بغنى مولاه لا بأسباب الغنى المادية ، وشعوره أنه عزيز بعزة مولاه لا بأسباب العزة الوهمية . وبين البوطي أن من وقف على باب مولاه ذليلا فقيرا ساق إليه من وجوه الإكرام ما لا يخطر منه على بال ، وأعطاه من المنح والمنن ما لم يكن لديه أمل في نيله[2] ، وفي هذا السياق ذكر الإمام ابن عجيبة أن الإفتقار إلى الله هو السر في ورود المواهب على العبد ، وهو السر كذلك في ورود العلوم اللدنية والأسرار الربانية[3].

وفي مقام آخر نجد أن البوطي يربط بين الإفتقار والذكر ، ويرى أنهما متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ، ذلك أن الذي يذكر الله ــ بأي أنواع الذكر ــ لا بد أن يتصور بين يدي ذكره إفتقاره إلى الله الذي يذكره ، وكلما استغرق الذاكر في ذكر مذكوره إلا وازداد يقينا بذله وعظيم فقره إليه ، وكلما ازداد شعورا بلطف الله به ورحمته به ، وهكذا حتى يترقى إلى تسليم أموره كلها لله تعالى مدبر هذا الكون[4].

ويذهب البوطي إنطلاقا من قوله تعالى : ((**يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ** ۝[5]))، إلى أن العبد في كل تقلباته وحركاته وسكناته لابد أن يستشعر أنه عبد مملوك لله، وأن يترجم هذه العبودية إلى ما يتصف به حقا من منتهى الضعف والإفتقار ، فإذا أراد التخلص من فقره

---

[1]ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ص117.

[2]ــ المصدر نفسه ، ج3 ،ص118.

[3]ــ أحمد بن عجيبة ، إيقاظ الهمم (مرجع سابق) ،ص190.

[4]ــ البوطي ، المصدر نفسه ، ص189.

[5]ــ سورة فاطر ، الآية 15.

والتحرر من ضعفه وعجزه فالسبيل الوحيد إلى ذلك إنما هو الالتجاء إلى الغني القوي ، فإذا شعر بغناه الذي يتمتع به ، لم ينسه ذلك مولاه الغني الذي أغناه وأنعم عليه ، فإذا تمتع العبد بهذه اليقظة فقد نال نعمتين اثنتين ، بهما ينال أسمى درجات القرب من الله، وهذان النعمتان هما : نعمة استدامة الشكر ، ونعمة أنه أصبح رباني التصرف والسلوك[1] .

وعليه فإن غاية ما يمكن أن نخلص إليه هو أن الإفتقار إلى الله من أهم مظاهر العبودية لله تعالى ، وأن العبد لا يمكن أن يتحقق بالعبودية على أكمل وجه إلا إذا استشعر إفتقاره إلى الله تعالى ، وأدرك أنه لا يمتلك شيئا ولا يملكه شيء من أوهام الغنى ، وفي الوقت نفسه يكون مستشعرا أنه غني بغنى مولاه وهو ما يقوده إلى الإستمرار في الشكر والذكر ، وهو كذلك ما يجعل قلبه نابضا بحب مولاه في كل لحظة من حياته ، وهذه ـــ في الحقيقة ـــ خير اللحظات التي تمر على المسلم ،كما قال إبن عطاء الله السكندري : ((خير أوقاتك وقت تشهد فيه وجود فاقتك ، وترد فيه إلى وجود ذلّتك)).

3- التحقق بوصف الإضطرار : سبق القول أن صورة العبودية لله لا تكتمل إلا بالإفتقار إليه تعالى فإذا تحقق العبد بوصف الإفتقار ، فإنه كذلك لابد أن ينقطع عن أسباب الكون كلها ويتعلق بالمكون وحده ، وأن تنمحي من بصيرته كافة المؤثرات والآثار ، لينصرف بقلبه إلى المؤثر وحده ، وأن يتجرد من كل حول ومن كل قوة ، ليتعلق قلبه بحول مولاه وقوته ، فإذا بلغ المسلم هذا المبلغ وتحلى بهذه الحالة فهو المضطر ، وتسمى هذه الحالة حالة الإضطرار[2] ، وهي الحالة التي يشبهها ابن عجيبة بحالة الغريق في البحر، أو الضال في التيه القفر، ولا يرى من يغيثه غير مولاه ، ولا يرجو لنجاته من الهلاك أحدا سواه[3].

---

[1]ـ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج3 ،ص94و95.

[2]ـ المصدر نفسه ، ص112.

[3]ـ إبن عجيبة ، إيقاظ الهمم (مرجع سابق) ، ص190.

والذي لا يجوز فهمه من حالة الإضطرار، أنها حالة يلجأ إليها العبد عندما يستنفذ الأسباب ، فإذا لم تجديه نفعا لجأ إلى حالة الإضطرار،أي لو أنه أدرك خلاصه في الأسباب لاستغنى عن أن يكون مضطرا وهذا قبح فاحش ، بل وخلل مكدر لصفو العقيدة الإسلامية وهذا ما جعل البوطي يطرح السؤال الآتي : متى يكون العبد مضطرا ؟ ذلك أن كثيرا من الناس يظن أن حالة الإضطرار تأتي بعد إستنفاذ الأسباب والقدرات ، وفي هذا يقول : ((إن العبد في كل أحواله وسائر تقلباته مضطرا ، منقطعا عن الناس كلهم ، وعن سائر الأسباب إلى رب الناس ومسبب الأسباب وهو الله عز وجل))[1] وهذه هي الحقيقة التي يغفلها كثير من الناس ، وتظل آمالهم موصولة بدنيا الناس وما يخيّل إليهم من قوة يملكونها أو نفع يمكن أن يعود عليهم ، وهذا ما يضعّف الصلة بالله ، ويقوي الصلة بالأسباب الخادعة ولا يتفطن العبد إلى هذه الحقيقة إلا بعد أن يطرق باب الأسباب فيجده موصدا، ويستعمل حيله فيجدها لا تزيد على أن تكون سرابا خادعا ،وهذا كثيرا ما يدفع العبد إلى أن يلجأ إلى الله لجوء المضطر وهو ما لفت القرآن الكريم النظر إليه وحذّر منه في قوله تعالى:((**وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُوراً ﴿٦٧﴾**[2])).

ولذلك فإن العبد في كل تقلباته وظروفه مضطرا إلى مولاه ، ملتجأ إليه ، وهو على يقين أن الأسباب لن تغني عنه شيئا إن تخلى الله تعالى عنه ،وأن المصائب وألوان الأذى لن تقوى على النيل منه شيئا إن هو أحاطت به وقاية الله وشمله حفظه ، ولذلك يبين البوطي أن من بلغ مقام العارف بالله لا تتنوع حياته ولا تتلون ، كما هو الشأن لسائر الناس ، وإنما هو يعيش حالة دوام على الإضطرار[3]، فالصوفي لا يخلو ذهنه لحظة من تصور المعنى القرآني الوارد في قوله تعالى :((**أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا**

---

[1] ــ البوطي ، الحكم العطائية (مصدر سابق) ، ج3 ،113.

[2] ــ سورة الإسراء ، الآية 68.

[3] ــ المصدر نفسه ، ج2 ،ص196.

دَعَاهُ[1])) ، فلا فرق عنده بين رخاء وشدة لطالما أن كلاهما من الله ، وهو في كلا الحـــالين لا يشهد إلا الله ، خاضع لسلطانه مفوض إليه أمره كله ، مضطر إليه في كل حين ،كما قال الإمام إبن عطاء الله السكندري : ((العارف لا يزول اضطراره)) ،وسئل أبي الحسن الشاذلي عن الصوفي قال : هو الذي لا يزال مضطرا .

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيـــل .

الخاتـــــــمة

وغاية ما يمكن أن نخلص إليه ونختم به هذا الجهد المتواضع ما يلي :

– إن الشيخ الدكتور البوطي شخصية بارزة ومتميزة في هذا العصر ، ولقد تمكّنت من فرض نفسها عن جدارة في ساحة الفكر ومعترك الثقافة والعلم ، بكل ما تدل عليه هذه الكلمة من معنى ، وإن هذه المكانة التي تبوأها بين أقرانه لم تأت من فراغ ، وإنما مردها إلى جملة من العوامل ، لا نشـــك أن في مقدمتها الإخلاص للعلم ، فكانت جهوده ثمرة من ثمرات الإخلاص ، لا سيما وقد علمنا أن والده الشيخ ملا كان يعده منذ الوهلة الأولى لذلك ،وكان يحذره بين الفينة والأخرى من أن ينـــزل بمستوى العلم إلى الإحتراف والتكسب وطلب الدنيا ، أضف إلى ذلك تتلمذه على يد الكبار ولا سيما من ذلك مرحلة الأزهر الشريف ، وهو ما صقل مواهبه ، ونمى حبه للعلم ، وزرع فيه بذرة الصـــدق واليقين .

– إن من ثمرات علو كعب الشيخ البوطي في العلم تلك الصبغة العلمية المتناهية في الدقة ،والتي تميزت بها كتاباته ، وتلك الحـــلة الإسلامية التي زانت أفكاره وآراءه ، فارتقت بذلك إلى مســـتوى

[1]ـــ سورة النمل ، الآية 62.

البديل الإسلامي الصائب ، والذي انهارت أمامه أحلام المولعين بالطرح الغربي ، وبذلك يمكن اعتباره من مجددي العصر الكبار الذين يحملون التصور الإسلامي المعتدل والصائب ، والقادر على التكفل بعلاج مشكلات الواقع التي استفحلت فيه ، وهو ما يثبت لنا ثراء الفكر الإسلامي ، وغناه بما يغنـــيه عن الحلول المستوردة ، إذ إن المسلمين لو أنهم عادوا إلى تراثهم ودرسوه بجد ، وأثروه بعمق لوجدوه كفيلا بمايصلح واقعهم ، ويخرجهم من ظلـــمات التبعية إلى نور الإبتـــكار والإستغناء عن الأعداء، ولأزالوا تلك النظرة المقدسة لما يفد عليهم من غيرهم .

– إن الأمة الإسلامية اليوم هي أحوج ما تكون إلى تأسيس معرفة إسلامية متكاملة الجوانب عمادها العقل المتحرر من قيود التبعية الغربية ، ووسيلتها عالم الحس وما يحويه من شواهـــد كونية متنوعة ، وروحه التي تسري في كيانه الذوق ، وبالوصل بين هذه الأطراف تتكامل المعرفة ، ويتم شهود اليقين ،وبهذا يكون التأسيس لمعرفة إسلامية أصيلة ، وبهذا نقضي على ذلك الإنبهار الخادع الذي يلوح لنا من قبل الغرب ، وجهود مثل هذه هي أجدر ماتكون بالدراسة والتفعيل ، وفيها غنا عن ما عكف المسلمون حوله قرونا طوالا من خلافات تهدم ولا تبني ، وتفسد ولا تصلح ، ولعل أوخم نتيـــجة أفرزتها في عالمنا اليوم هي زرع الشحناء والبغضاء والتفرقة في أوساط الأمة ، وانقسام المسلمين إثر ذلك إلى طوائف متناحرة ، كل يطلق على نفسه تسميات معينة ، ويتعصب لها ، بل ويرى أنها الحق الذي ليس وراءه إلا الباطل ، ولعل السر في ذلك ـــ في تصوري ـــ لا يعدو أن يكون تغذية لشعور في القلب ، وركونا إلى هوى مستحكم في النفس ، ونحسب أن رسالة التصوف الإسلامي لم تأت إلا تطهيرا للقلب وتزكية للنفس من ذلك .

– ضرورة الإهتمام بالجانب الروحي الأخلاقي ، ومزجه بكل ما يتصل بمناحي المعـــرفة على تنوع إختصاصاتها ، وجعله المحتوى الذي تنبني عليه أي دراسة إنسانية ، ليس أدل على ذلك مما يشـــهد له تاريخنا الزاهر ، إن نصرة بدر وهزيمة أحد والإعجاب بالكثرة يوم حنين لأكبر دليل على أهمية الجانب الروحي قوة و ضعفا في صناعة الحياة ، ومن ثمة فإن التعلق بالأعراض ما فتأ يخلف هزائم وإن أوهـــم بخلاف ذلك ، فأي شك لا زال ينتابنا ـــ بعد هذا اليقين ـــ في أن مشكلة الواقع الإسلامي إنما هي مشكلة أخلاق لا أفكار ؟ ومن هنا فإنه يبدو أنه قد آن الأوان لإعادة النظر في

مشكلات الواقع ، وفي الحلول المقترحة ، مما يستوجب صياغة جديدة لمعرفة تكون أكثر ملائمة مع الواقع .

– ضرورة تفعيل التراث ، والبناء عليه ، ذلك أن جهود المتقدمين لا تزال مقبورة لم يستفد منها الواقع إلا النزر اليسير ، وعلى مستويات محدودة جدا ، بل وفي الناس من لا تتجاوز نظرته له على أنه ماض لا يصلح إلا للتبرك به ، والسر في ذلك إنما يعود إلى قلة الإهتمام به والدراسة له، وتبسيطه وإنزاله إلى ساحة الواقع ، ذلك أن الروحانيات وقضايا التصوف الإسلامي بصورة خاصة ، لا تزال كثير من الأنظار تلاحقها بالعداء ، وتكن لها الكراهية ، وتشن عليها الهجوم تلو الهجوم ، وهذا واقع في الساحة العلمية فضلا عن ميدان العوام ، ومن أسباب وجود نشأة هذه النظرة واستفحالها تغييب هذا اللون المعرفي من الدراسات في برامجنا وعلى تفاوت المستويات ، وإن من النتائج الوخيمة التي انعكست على واقعنا الاجتماعي إثر ذلك :

الترف وما يترتب عنه هو الآخر من آثار ، إستباحة الكثير من المحرمات كالخمر و الغناء الفاحش، الميل إلى شكليات الثقافة الغربية ، العزوف عن القيم والمبادئ والتي كانت مفخرة أجدادنا بالأمس القريب ، فتح باب الاختلاط على مصراعيه بدعوى العصرنة ، تحريف صورة الحجاب الشرعي للمرأة والذي جرّته هو الآخر العصرنة حتى غدا أقرب إلى التبرج منه إلى سترة المرأة وكرامتها إلخ... وكل هذا يحدث في وقت نزعم فيه التقدم ومواكبة إصلاحاتنا العلمية والتربوية لقضايا العصر، ولسنا ندري هل حددنا مواطن الفساد قبل أن نزعم الإصلاح ، فلعل الوقوف على مكمن الداء جزء من علاجه كما يقولون ، ومدار فكر الشيخ البوطي على هذا .

– إن بناء الإنسان لابد أن يتم ببناء باطنه أولا ، ذلك لأن صلاحه متوقف على صلاح تلك المضغة التي في جسده ، والسبيل إلى ذلك إنما يتم بتخلية الباطن من أمراضه أولا، وتحليته بأتم الفضائل والأخلاق كالورع والصبر والذكر والتأمل ونحو ذلك ، مع مجاهدة النفس على ذلك كله، ثم ترسيخ معنى العبودية لله في النفس ، فإذا ارتقت النفس إلى هذه الكمالات فقد آن لها أن تنطلق في فجاج الحياة جادّة كادة ، وآن لها اقتحام ميدان الكونيات من طب وهندسة وزراعة وصناعة ،

فهي بلا ريب في مستوى الصلاح والإصلاح ، وهذا هو التصوف الذي هو فقه الواقع الذي يدع إليه الشيخ البوطي وأمثاله .

– إن من محتويات هذا الجهد المتواضع ما يدفع بالكثيرين إلى التساؤل عن بعض الغوامض فيه ، ومن ذلك ما يتعلق بمبحث المقامات والأحوال كالزهد أو التوكل أو البسط أو القبض إلخ ... ، ومـــدار هذا التساؤل إنما هو حول إلزاميتها للمسلم ، أي ما الدليل على أن المسلم مطالب بها ، وهل من سنة النبي ـــ صلى الله عليه وسلّم ـــ أن نفعل ذلك ؟ والخطب في مثل هذه الأسئلة القديمة المتجددة يسير ونقول فيها ما قاله الشيخ البوطي نفسه : إن هذه المواقف ليست أحكاما شرعية يدّعيها أصـــحابها حتى يقتدى بهم فيها ، أو يتنكر عليهم بسببها ، وإنما هي حالات وجدانية اعترتهم وهيمنت عليهم ، فمنهم من لازمته ومنهم من مرت عليه ، وما تلك الحالة أو التعبير عنها إلا نتيجة لذلك الإستغراق في ذلك الشعور ، فلا حاجة للحكم لهم أو عليهم .

– لقد حاولنا قدر استطاعتنا في هذه المذكرة أن نسلط الضوء على المناحي الروحية في حياة وكتابات البوطي ، ونرى أن كثيرا من جهوده لا تزال بكرا لم تطأها قدم باحث ، كما نرى أنها أجدر ما تكون بالدراسة والإثراء ، ومن ذلك مثلا مسألة الإنسان ، القضاء والقدر ، الأخلاق ... إلخ ، وهي دعوة للباحثين إلى الإهتمام بذلك والإقبال عليه بجد .

والله ولي التوفيق .

فهرس الآيات القرآنية :

الآية	رقمها	اسم السورة	رقم الصفحة في الرسالة
((إياك نعبد و إياك نستعين))	04	الفاتحة	134
((واستعينوا بالصبر و الصلاة إنها لكبيرة إلا على الخاشعين))	45	البقرة	98
((ولنبلونكم بشئ من الخوف و الجوع و نقص من الأموال و الأنفس و الثمرات ...))	155		96
((إن في خلق السموات و الأرض و اختلاف الليل و النهار و الفلك التي تجري في البحر ...))	164		77
((والذين آمنوا أشد حبا لله ...))	165		106
((وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم و عسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ...))	162		103
((واتقوا الله ويعلمكم الله ...))	281		76
((قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ...))	31	آل عمران	104
((و الله يحب الصابرين))	146		102
((لتبلون في أموالكم و أنفسكم و لتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم و من الذين أشركوا أذى كثيرا))	186		96
((إن في خلق السموات والأرض و اختلاف الليل و النهار لآيات لأولي الألباب))	190		77
((لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد . متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبيس المهاد))	196 197		136

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

((يآ أيها الذين آمنوا أصبروا و صابروا ...))	200		98
((قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن إتقى))	77	النساء	133
((ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرة و سعة ...))	100		10
((يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر و الميسر و الانصاب رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه...))	90	المائدة	105
((قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده و الطيبات من الرزق ...))	32	الأعراف	95
((سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الارض بغير الحق ...))	146		90
((... فسأكتبها للذين يتقون ...))	156		89
((ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات و أن الله هو التواب الرحيم))	104	التوبة	89
((هو الذي أنشأكم من الارض و استعمركم فيها))	16	هود	94
((وكذلك أخذ ربك إذ أخذ القرى و هي ظالمة إن أخذه أليم شديد))	102		107
((فإذا سويته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين))	29	الحجر	35
((نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم . وأن عذابي هو العذاب الاليم))	49 50		108
((ولا تقف ما ليس لك به علم ...))	36	الإسراء	64
((و إذا مسكم الضر ضل من تدعون إلا أياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم و كان الانسان كفورا))	68		137
((قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي ...))	105	الكهف	80
((و جاهدوا في الله حق جهاده ...))	78	الحج	132

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

((و من لم يجعل الله له نور فما له من نور ...))	40	النور	85
((و قدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا))	23	الفرقان	70
((... أمّن يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ...))	62	النمل	145
((قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق..))	19	العنكبوت	84
((و الذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ...))	69		132
((يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله و الله هو الغني الحميد))	15	فاطر	135
((... إنما يخشى الله من عباده العلماء))	28		114
((إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب))	10	الزمر	98
((أولم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم ...))	21	غافر	64
((سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ...))	53	فصلت	84
((وهو الذي يقبل التوبة عن عباده و يعف عن السيئات ويعلم ما تفعلون))	25	الشورى	90
((فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس و قبل الغروب))	31	ق	124
((ففروا إلى الله إني لكم منه نذير مبين))	50	الذاريات	100
((وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون))	56		95
((سنفرغ لكم أيها الثقلان))	31	الرحمان	107
((ألم يان للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله و ما نزل من الحق ...))	16	الحديد	26/23
((أولئك الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ...))	19	الحشر	85
((ومن يتق الله يجعل له مخرجا و يرزقه من حيث	03	الطلاق	20

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

لا يحتسب ...))			
((هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها و كلوا من رزقه و إليه النشور))	15	الملك	94
((يا أيها المزمل . قم الليل إلا قليلا . نصفه أو إنقص منه قليلا))	1، 2، 3 .	المزمل	124
((فلينظر الانسان مما خلق . خلق من ماء دافق . يخرج من بين الصلب و الترائب .))	5، 6 7 .	الطارق	12
((افلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت))	17	الغاشية	68

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث النبوية

الرقم	نص الحديث	رقم الصفحة في الرسالة
01	((أول ما بدئ به رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الرؤيا الصالحة في النوم ...))	128
02	((ولكن الزهادة أن تكون بما في يد الله أوثق مما في يدك ...))	28
03	((... حتى نزل النبي – صلى الله عليه وسلم – من على المنبر و وضع يده عليه ...))	35
04	((كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو على مشارف مكة متجها إليها يوم الفتح ...))	117
05	((المؤمن القوي خير و احب إلى الله من المؤمن الضعيف ...))	106
06	((... اللهم بالرفيق الأعلى))	39
07	((فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ...))	110
08	((رب أشعث أغبر ...))	85

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس المصادر والمراجـــع :

-القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع).

- المصـــــادر:

- البـــــوطي (محمد سعيد رمضان البوطي ــ ت1434هـ /2013م ــ) .

-1- هذا والدي ،ط1، دمشق ــ بيروت ــ: دار الفكر (1985) .

-2- شخصيات إستوقفتني ، ط1 ،بيروت : دار الفكر (2001م) .

-3- السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي ، ط1، دمشق : دار الفكر 1988.

-4- من الفكر والقلب ،دط ، الجزائر(عين مليلة) :دار الهدى ، دت.

-5-باطن الإثم الخطر الأكبر في حياة المسلمين ،ط2 ،

-6- محاضرات في الفقه المقارن ، ط2 ، دمشق : دار الفكر 1981.

-7- الحكم العطائية شرح وتحليل ، ط6 ، دمشق : دار الفكر 2011م .

-8- كبرى اليقينيات الكونية ، دط ، دمشق : دار الفكر 1997م .

-9- تجربة التربية الإسلامية في ميزان البحث ، دط ، الجزائر :دار الهدى ، دت .

-10- فقه السيرة ، ط8 ، الجزائر : دار الشهاب ، دت .

-11- هذه مشكلاتهم ، ط4 ، دمشق : مكتبة الفارابي 1995.

-12- قضايا ساخنة ، دط ، دمشق : دار الفارابي للمعارف ، دت .

-13- نقض أوهام المادية الجدلية ، ط1 ، دمشق : دار الفكر 1978.

- المـــراجع :

- كتب السنـــة :

ــ البخاري (محمد بن اسماعيل) **-14**- الجامع الصحيح ، دمشق : دار ابن كثير 1993.

ــ الترمذي (أبو عيسى) **-15**- الجامع الصحيح ، ط1 ، القاهرة : دار الحديث ،دت .

ـــ مسلم (ابن الحجاج القشيري) **–16–** المسند الصحيح ، بيروت : دار إحياء التراث العربي 1927م.

ـــ ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد) **–17–** السنن ، تحقيق خليل مامون شيحا ، دط ، بيروت :دار المعرفة ، دت .

المراجع الأخرى :

ـــ الإصبهاني (أبو نعيم) **– 18–**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ط3، بيروت :دار الكتاب العربي 1980م .

ـــ الآسنوي (عبد الرحيم) **– 19**- طبقات الشافعية ، ط1، بيروت : دار الكتب العلمية 1987م.

ـــ بهجت (أحمد) **–20–** رحلة في عالم النورسي ، دط ، القاهرة : دار النصر ، دت.

ـــ زكي مبارك ،**–21–** التصوف الإسلامي بين الأدب والأخلاق ، ط1، بيروت : دار الجيل 1408ه .

ـــ زكي مبارك **–22–** الأخلاق عند الغزالي ، ط1،

ـــ ابن حجر (أحمد بن علي) **–23–** تهذيب التهذيب ، ط1 ، دمشق :دار الفكر 1984م.

ـــ طرابيشي (جورج) **–24–** معجم الفلاسفة ، ط3 ، بيروت : دار الطليعة ، دت .

ـــ كفافي (عبد السلام) -**25–** في الآداب المقارن ، دط ، بيروت : دار النهظة العربية 1972م

ـــ ابن كثير (أبو الفداء اسماعيل) **–26–** تفسير القرآن العظيم ، ط1 ، الجزائر :دار الثقافة 1990م .

ـــ ابن منظور الدمشقي **–27–** مختصر تاريخ دمشق ، تحقيق مامون الصغرجي ، ط1، دمشق : دار الفكر 1986م .

ـــ السباعي (مصطفى حسني) **–28–** هكذا علمتني الحياة ، ط1 ، دمشق : دار الوراق ، 1990م.

ـــ سليمان دنيا ،**–29**- الحقيقة في نظر الغزالي ، ط4 ، القاهرة : دار المعارف ، دت .

ـــ ابن عجيبة (أحمد الحسني) –**30**– ايقاظ الهمم في شرح الحكم ، دط ، دمشق : دار الفكر دت .

ـــ ابن عساكر الدمشقي –**31**– تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري ط3 ، بيروت : دار الكتاب العربي 1984م .

ـــ ابن عربي (محيي الدين) –**32**– الفتوحات المكية ، دط ، دمشق :دار الفكر ، دت .

ـــ فيصل عباس –**33**– موسوعة الفلاسفة ، ط1 ، بيروت : دار الفكر 1996م .

ـــ صبري (مصطفى) –**34**– موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، ط2 بيروت : دار إحياء التراث العربي 1981م .

ـــ القشيري (أبو هوازن) –**35**– الرسالة البيانية ، شرح زكرياء االأنصاري ، دط ، بيروت : دار الكتاب العربي ، دت .

ـــ رجب (سمير محمد) –**36**– الفكر الأدبي والديني عند الداعية الإسلامي بديع الزمان النورسي ط2 ، القاهرة : مطبعة المدني 1995م.

ـــ الشرباصي (أحمد) –**37**– يسألونك في الدين والحياة ، دط ، بيروت : دار الجيل ، دت .

ـــ الشرنوبي (عبد المجيد) – **38**– شرح الحكم العطائية ، تحقيق عبد الفتاح البزم ، دط ، الجزائر: دار الهدى ، دت .

ـــ تركي إبراهيم– **39** – مقدمة في فلسفة المعرفة ، دط ، مصر : دار الكتب القانونية ، 2012م.

ـــ ابن خلكان (أحمد بن محمد بن أبي بكر) –**44**– وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، دط ، بيروت : دار صادر ، دت .

ـــ الذهبي (شمس الدين)– **41**– سير أعلام النبلاء ، تحقيق محمود شاكر ، ط1 ، لبنان : دار إحياء التراث العربي 1427ه .

ـــ الغزالي (أبو حامد) –**42**– إحياء علوم الدين ، تحقيق الحافظ العراقي ، ط1 ، دمشق : دار قتيبة 1992م.

ـــ الغزالي (أبو حامد) -**43**- مكاشفة القلوب المقرب إلى حضرة علام الغيوب ، ط1 ، بيروت: دار الكتب العلمية 1982م .
ـــ الغزالي (أبو حامد) -**44**- المنقذ من الضلال ، تحقيق جميل صليبا ، وكامل عياد ، دط ، بيروت : دار الأنس ، دت .
ـــ الغزالي (محمد) -**45**- الجانب العاطفي من الإسلام ، ط1 ، بيروت : دار السراج 2010م.
ـــ الغزالي (محمد) -**46**- ليس من الإسلام ، دط ، الجزائر : دار المعرفة ، دت .

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات :

الصفحة

- المقـــدمـــة

-الفصـــــل الأول: سيرة البـــوطي وآثاره العـــــلمية 08

المبحث الأول : مولد البوطي ونشأته العلمية 09

1- مولـــده وأسرته 09

2- أثر الأسرة في نشأته العلمية 11

3- بداية رحلته العلمية والمعرفية 15

4- مرحلة الأزهر الشريف 17

5- تدريسه في جامعة دمشق 19

6- نشاطاته المسجدية ووفاته 19

المبحث الثاني : أبرز الشخصيات التي أسهمت في تكوين شخصيته العلمية.. 22

1- شخصية الفضيل بن عـــياض 22

2- شخصية عبد الله بن المـــبارك 25

3- شخصية أبي حـــامد الغـــزالي 29

4- شخصية جلال الدين الرومي 31

5- شخصية بديع الزمان النورسي 36

6- شخصية مصطفى الســـباعي 41

المبحث الثالث : مؤلفاته وآثاره العلمـــية 44

1- مؤلفـــاته..... 44

2- خصائص مؤلفاته..... 52

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

3– منهجه في البحث والتأليف..... 54

– **الفصـــل الثاني : نظرية المعـــرفة عند البوطي** 57

المبحث الأول : المعـــرفة العقلية عند البوطي 58

1– حقيقة العقل والمعرفة العقلية 58

2– وظائف العقل ومجالات المعرفة العقلية..... 60

3– تحـــرير العقل وتنقـــيته 63

3–أ– الخـــرافات 63

3–ب– التقـــليد 64

3–ج– الأوهـــام 65

المبحث الثاني : المعـــرفة الحسية عند البوطي 66

1– طبيعة المعرفة الحسية عند الفلاسفة 66

2– المعـــرفة الحســـية عند الصوفـــية 68

3ـــ مجـــالات المـــعـــرفة الحســـية 69

المبحث الثالث : المعـــرفة الذوقية (الإلهامية) عند البوطي 72

1– طبيعـــة المعرفة الإلهامـــية 72

2– الـــذوق وعـــوائق الحس 76

3– حدود وضوابط المعرفة الإلهامية 78

4– المناهج المعرفية بين الإنفصال والإتصال 82

- **الفصـــل الثالث : الممارســـــة الصـــوفية** 88
المبحث الأول : الممـــارسة التخلـــيقيـــة 89
1- التحقق بالمقـــامات 89
1-أ- التـــــوبة 89
1-ب- الورع 91
1-ج- الزهـــد 92
1-د- الصـــبر..... 95
1-ه - الـــرضا..... 98
1-و- التوكـــل..... 99
1-ز- المحبـــــة..... 102
2- التحقق بالأحـــــوال 107
2-أ- القبض والبسط 107
2-ب- الهيبة والأنس 110
2-ج-الخوف والرجاء 113
2-د-الفناء والبقاء 114
2-ه - وحدة الشهود 117
2-و- وحدة الوجود 119
2-ز- موقف البوطي من ابن عربي 121
المبحث الثاني : مقتضيات الممارسة التخليقية 123
1- الذكـــر (الورد) 123
2- التدبر (النظر والتأمل) 127
3- الخلـــوة (العـــزلة) 127

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

4– الشـــيـــخ 130

المبحث الثالث : **المـــارســـــة التحقيقـــية** 132

1– حقيقة العبودية وأثرها في الممارسة التحقيقية 132

2– التحقق بوصف الإفتقـــار 135

3– التحقق بوصف الاضطرار 136

– **خـــاتمـــة** 139

– **فهرس الآيات القرآنية** 143

– **فهرس الأحاديث النبوية** 147

– **فهـــرس المصادر والمراجع** 148

– **فهرس الموضـــوعات** 152

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية